الفصل التاسع عشر

الدين

وكذلك أحسّ المسلمون من أعماق نفوسهم حاجات جديدة فى الدين منذ القرن الثالث الهجرى ، وسرعان ما تقدمت لسد هذه الحاجات الديانات القديمة التى كانت دائماً مستترة وراء ستار ظاهرى ، ولا سيما الديانة المسيحية المشربة بفلسفة متأخرى اليونان . وإن الحركة التى غيرت الإسلام تغييراً كبيراً فى أثناء القرنين الثالث والرابع ليست فى مجموعها سوى نتيجة لنفوذ التيارات الفكرية المسيحية إلى الدين الإسلامى (١) ، وعبّر البعض عن المثل الأعلى الجديد فى الدين بأنه « معرفة الله » ، وهى عبارة ربما كانت فى نظر محمد (عليه الصلاة والسلام) مشعرة بالانتقاص من قدر الذات الإلهية . وهذا المثل الأعلى الجديد ، حتى من حيث التسمية ، هو مذهب الغنوسطيين القديم يعود إلى الظهور فى وطنه الأول ، وتصبح

(١) وربما كان المذهب الأفلاطونى الجديد وحده غير قادر على إحداث هذه الحركة العقلية الشاملة ، وينبغى ألا ننسى أن هنا للمذهب نفسه كان من قبل وليد الحكمة الشرقية القديمة . وقد عالج الأستاذ جولد زيهر (Goldziher) فى كتابه المسمى محاضرات عن الإسلام (Vorlesungen über den Islam) ص ١٦٠ وما بعدها بيان الآثار الهندية ، ولا سيما البوذية ، التى لا يشك أنها قد أثرت فى المسلمين ، وإنْ كان تأثيرها ثانوىّ المرتبة . ولنلاحظ أنه — فيما عدا الحلاج — يُذكر عن بعض الصوفية أنهم جاءوا إلى بلادهم بالحكمة من الهند (انظر مثلا رسالة القشيرى ص ١٠٢ ؟ وكشف المحجوب للهجويرى ص ١٤٣ و ٢٤٢ وما بعدها ؟) . أما كتاب جولد زيهر فهو مترجم إلى الإنجليزية بعنوان : Mohammad and Islam وإلى الفرنسية بعنوان Le Dogme et la Loi de l'Islam . أما ما يذكره المؤلف عن القشيرى فلم أجده مقابلا فى الرسالة ؛ غير أن كثيرين من الصوفية يُنسبون إلى مدن فى شرق المملكة الإسلامية ، ويحكى القشيرى (ص ١٢ من طبعة مصر ١٣٤٦) أن أحد الصوفية ... فى طريق الزهد بعد كلام له مع خادم لبيت أصنام ببلاد الترك (المترجم) .

له السيادةُ في جميع نواحي الحياة الروحية طول هذين القرنين ؛ وقد ظهر عند أهل التفكير الحرّ في صورة مذهب عقلي أو مذهب اعتقادي أساسه العقل ، وعند الآخرين في صورة التصوف . والتصوف عند المسلمين أيضاً يحمل الدلائل الواضحة على صلته الوثيقة والتحام نسبه بالمذهب العقلي ، هذا الالتحام الذي نستطيع إثباته في كل أطوار التاريخ العالمي ؛ لأن التصوف أيضاً علم له أصوله ، وليس الذي يقابله هو المعرفة العلمية النظرية ، بل المذهب الذي يقول به نبي يجب الإيمان بدينه على أن يكون معرفة غير نظرية بل تقوم على العاطفة الملتهبة وتؤسس على الحياة الواقعة ، وكذلك عادت إلى الظهور كل علامات المذهب الغنوسطي الأول من علوم سرّية ، وتنظيم للجمعيات السرية ، وإنشاء لمقامات في المعرفة بعضها فوق بعض ، وقول بصدور الموجودات عن الله ، وبالتوازي والتقابل بين العالمين ، وظهور خصائص الحكمة البابلية القديمة ، ونشوء مذاهب تتردّد بين الزهد والإباحة ، وتصور الكمال والسمو الروحي على أنه « طريق » . وتدل أقدم الكتب الصوفية التي وصلت إلينا ، وهي مصنّفات الحارث بن أسد المحاسبي المتوفى سنة ٢٤٣ هـ — ٨٥٧ م دلالة واضحة على أنه تأثر بالمسيحية تأثراً كبيراً ، فإنه قد بدأ أحد كتبه بمثل الباذر المذكور عن المسيح عليه السلام ؛ والكتاب الآخر نستطيع أن نعتبره صورة مكبرة لخطبة الجبل(١) . وكذلك نجد

(١) Margolioath, Verhandlungen des 3 Religionsgeschichtlichen Kongresses, Oxford, Bd I, S. 292.

وهي قرارات المؤتمر الثالث لتاريخ الأديان التي عقد بأكسفورد (ج ١ ص ٢٩٢) . الكتاب الأول هو كتاب الرعاية لحقوق الله : أطلعني الأستاذ لويس ماسينيون على صورته الفوتوغرافية ، ويقل المحاسبي فيه عن بعض الحكماء تمثيل الهادي بالباذر ، وكلامه بالبذر ، والناس بأرض صالحة خضرة ، أو أرض ذات شوك يخنق الزرع ، أو صخر أملس لا يمكن الزرع من النماء ، وهكذا . وتدل المقارنة بين كلام المحاسبي وبين مثل الباذر في أناجيل لوقا مثلا (الفصل السابع والعشرين) على أن المحاسبي ينقل عن السيد المسيح عليه السلام . أما الكتاب الثاني

الحكيم الترمذى ، وهو من كبار شيوخ الصوفية القدماء (توفى عام ٢٨٥ هـ — ٨٩٨م) ، يقول إن عيسى عليه السلام خاتم الأولياء ، و يبين مكانته[١] . ولم تكن المملكة الإسلامية « مملوءة بالآلهة » كما امتلأت فى ذلك العصر ؛ حتى انمحت الحدود بين الله و بين عبده ؛ وصار بعض المتصوفة يدّعون الوصول إلى درجة الاتحاد بالله ، و يروى أبو العلاء لبعض أهل النحلة الحلولية :

رأيت ربى يمشى بلا لكة فى سوق يحيى فكدت أنفطر
فقلت هل فى اتصالنا طمع فقال هيهات ، يمنع الحذر[٢]

وكان بين يدى بعض طوائف القائلين بالمهدى من يعبث بالقول فيصف الخلفاء بالألوهية ، على نحو لا نظير له من قبل ولا من بعد ؛ فمن ذلك غلو ابن هانئ فى مدحه للخليفة المعز حتى كفّره العلماء :

ماشئت لاماشاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار

وقوله مخاطباً حامل لواء الخلافة

ولطالما زاحمت تحت ركابه جبريلا

ولما نزل هذا الخليفة فى مدينة رقّادة ، وهى بلد قريبة من القيروان . قال ابن هانئ :

= فلعله كتاب الوصايا وهو المسمى كتاب النصائح كما أخبرنى الدكتور عبد الحليم محمود الذى ألف كتاباً عن المحاسبى . (المترجم)

(١) كتاب الطواسين للحلاج طبعة باريس ١٩١٣ ص ١٦١ هامش رقم ٢ . وقد ذكر ابن العربى فى الفتوحات المكية (ج ١ ص ٢٠٦ من طبعة بولاق عام ١٢٠٩ هـ) أن عيسى عليه السلام سينزل ويحكم بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم بوحى من الله أو باطلاعه على روح النبى محمد عليه السلام ، ومن هذا الوجه يرى ابن العربى أن سيدنا عيسى يكون صاحباً وتابعاً ، وخاتم الأولياء وأفضل الأمة المحمدية . ويذكر ابن العربى أن الحكيم الترمذى نبه على ذلك فى كتابه ختم الولاية ، وشهد لعيسى عليه السلام بالفضيلة على كبار الصحابة .

(٢) الجزء الخاص بالزندقة من رسالة الغفران لأبى العلاء فى : 1902, S 835 .

حـلّ برقّدة المسيح　　حل بها آدم ونوح
حلّ بها الله ذو المعالى　　وكل شىء سواه ريح[(١)]

وفى آخر ذلك العصر ظهر أمر الخليفة الحاكم بأمر الله، ولايزال الدروز حتى اليوم يعظمونه معتقدين أنه إله .

وكان أول ظهور طوائف الصوفية حوالى عام ٢٠٠ هـ — ٨٠٠ م ؛وذلك فى مصر مهد الرهبنة المسيحية . « ففى عام ٢٠٠ هـ ظهرت بالإسكندرية طائفة يسمّون الصوفية ، يأمرون بالمعروف ، فيما زعموا ، ويعارضون السلطان فى أمره ، وترأس عليهم رجلٌ منهم ، يقال له أبو عبد الرحمن الصوفى »[(٢)] . وكذلك يُطْلِق ابن قديد المتوفى عام ٣١٢ هـ — ٩٢٥ م اسمَ الصوفية على جماعـة كانت تحيط بعيسى بن المنكدر ، الذى ولى قضاء مصر فى عهد المأمون .

وكان هؤلاء القوم « يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » . ولما ولى ابن المنـكدر القضاء كانت هذه الطائفة تأتيه ، وهو فى مجلس الحكم ، فتقول : أيها القاضى ! ذهب الإسلام ، فُعل كيت وكيت ، فيترك المجلس ويمضى معهم ؛ ثم لم يزالوا به حتى جعلوه يكتب إلى المأمون كتاباً لا يرضى فيه بولاية أبى إسحاق المعتصم على مصر ؛ فكان ذلك سبب خلعه من القضاء ومَوْجدة المعتصم عليه[(٣)] ، وإذن فقد كان ثَمّ صوفيـة أتقياء من أصحاب النزعة العملية ، أخذوا جادّين بالواجبات المفروضة على المسلم ، وكانوا يتدخلون فى حياة المجتمع تدخلا شديد

---

(١) نفس المصدر ص ٨٣٦ . ويقول ابن الأثير (ج ٨ ص ١٥٧) بعد ذلك بكثير إنه لم يجد هذين البيتين فى ديوان ابن هانئ ، ولـكنهما فى الديوان طبعة بيروت ١٣٢٦ هـ ص ٤٠

(٢) الولاة للـكندى ص ١٦٢ ، ونقل ذلك المقريزى فى الخطط ج ١ ص ١٧٣ ، ولقد ذكر جولدزيهر Goldziher, Za 1909 S 343 حديثين يتضمنان أن عام ٢٠٠ هـ هو مبدأ ظهور التصوف .

(٣) الـكندى ص ٤٤٠ .

الرطأة . وأول ما أطلق اسم الصوفية على فريق من هؤلاء القوم الصالحين وذلك أنه كان يقال لخواص الناس ، ممن لهم شدة عناية بأمر الدين ، الزهاد والعباد ؛ ثم « انفرد خواص أهل السنة ، المراعون أنفاسهم مع الله تعالى ، الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة باسم التصوف ؛ واشتهر هذا الاسم لهؤلاء الأكابر قبل المائتين من الهجرة »[١] ، ولم يكن فى مذهب هؤلاء القوم فى أول أمرهم شىء من مذاهب الصوفية المتأخرين . على أن إبيفانيوس (Epiphanius) يشكو فى القرن الرابع الميلادى بمصر من بقاء عدد كبير من الغنوسطيين الذين لا ضابط لأخلاقهم[٢] . وتسرّب كثير من آراء هؤلاء إلى جماعات الصوفية . وقد أشار الأستاذ رينولد نيكلسون (Reynold A. Nicholson) إلى الأثر الكبير الذى أحدثه ذو النون الكيميائى المصرى المتوفى عام ٢٤٥ هـ — ٨٥٩م فى مذهب الصوفية[٣] ، والحق أن كثيرين من مشايخ الصوفية فى المشرق تأثروا بالتصوف المصرى[٤] . ولم تنقطع حجة الفقراء فى دخولهم مصر إلا بعد موت أبى بكر الزقّاق[٥] . أما نموّ مذهب الصوفية وتكامله فقد كان كله فى المشرق ، وخصوصاً فى بغداد ؛ وكان نموا[٦] سريعاً . ويروى أن أول من تكلم فى علوم التوحيد

(١) رسالة القشيرى (ألفت عام ٤٣٧ هـ — ١٠٤٥م) ص ٧ — ٨ من طبعة سنة ١٣٤٦ هـ بمصر .

(٢) enfeld. Ketzergeschichte. S 283 .

(٣) Jras. 1906. 309 S 309 ff .

(٤) منهم أبو محمد سهل بن عبد الله التسترى المتوفى عام ٢٧٣ هـ أو ٢٨٣ هـ (القشيرى ص ١٤) ؛ وكذلك صحب أبو تراب النخشبى المتوفى عام ٢٤٥ هـ أبا حاتم العطار المصرى ، ونقل ما سمعه السكيرين (القشيرى ص ١٧) . وقد سمع من ذى النون أيضاً وصحبه أبو عبد الله ابن الجلاّء ، وهو من أكابر مشايخ الشام (القشيرى ص ٢٠) ؛ وكذلك يوسف بن الحسين المتوفى عام ٣٠٤ هـ ، وكان شيخ الجبال والرى فى وقته ؛ وأبو سعيد أحمد بن عيسى الخراز المتوفى سنة ٢٧٧ هـ ، فقد صحبا ذا النون أيضاً (القشيرى ص ٢٢ — ٢٣) .

(٥) القشيرى ص ٢١ .

(٦) لا تقول الآثار البغدادية شيئاً عن مصر ؛ أما الخلدى المتوفى عام ٣٨٤ هـ وهو أقدم =

والورع ببغداد هو أبو الحسن السرىّ السقطى المتوفى عام ٢٥٣هـ — ٨٦٨م ؛ وكان تاجراً ، فترك التجارة ، وقام من السوق ، ولزم بيته للعبادة وانقطع عن الناس[١] . وقد اشتهر بأنه أول من تكلم ببغداد فى الحقائق والتوحيد[٢] ، ويقال أيضاً إنه أول من تكلم فى المقامات والأحوال[٣] . وكان أول من تكلم فى اصطلاحات الصوفية من صفاء الذكر ، وجمع الهمّة ، والمحبة والعشق ، والقرب والأنس أبا حمزة محمد بن إبراهيم الصوفى البغدادى المتوفى عام ٢٦٩ هـ — ٨٨٢ م ؛ ولم يسبقه إلى الكلام بهذا على رؤوس المنابر ببغداد أحد . وكان تلميذ أحمد بن حوقل ، وهو الذى خاطبه بقوله له : يا صوفى[٤] . ويظهر أن معاصره طيفوراً البسطامى هو الذى أحدث لفظة السكر ، فكان لها ، إلى جانب كلمة العشق ، أكبر أثر فى التصوف الإسلامى[٥] . وقد روى لعلىّ بن الموفّق (المتوفى عام ٢٦٥ هـ — ٨٧٨ م) دعاء لا يتمشى مع ظاهر الإسلام من حيث الجوهر ، وهو قوله[٦] . اللهم إن كنتَ تعلم أنى أعبدك خوفاً من نارك فعذّبنى بها ؛ وإن كنتَ تعلم أنى أعبدك حبا مني

= من أرّخ للصوفية ، فإنه ينسب ، فى أخباره ، إلى معروف الكرخى المتوفى عام ٢٠٧ هـ — ٨٢٢ م ، وهو الشيخ البغدادى الذى يعظمه أهل بغداد ، ويردّ بقية نسبه إلى الزاهد القديم المشهور وهو حسن البصرى . انظر كتاب الفهرست ص ١٨٣ .

(١) زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة مخطوط باريس ص ٥ ب ؛ وانظر أيضاً Schreiner . Z D M G. 52. 515

(٢) تذكرة الأولياء لأبى حامد محمد بن أبى بكر إبراهيم الشهير بفريد الدين العطار النيسابورى (كتاب بالفارسية) طبعة ليدن ١٩٠٩ ج ١ ص ٢٧٤ ، نقلا عن نيكلسون Nicholson فى J R A S. 1906. 322 ، وروضة الناظرين للوترى ص ٨ .

(٣) كشف المحجوب ترجمة نيكلسون ص ١٣٠ .

(٤) النجوم الزاهرة لأبى المحاسن (ليدن) ج ٢ ص ٤٧ ؛ وزبدة الفكرة ص ٧٢ ا (مخطوط باريس رقم ١٥٧٢) ، وقيل فى وفاته إنه تكلم يوماً فى علوم الإرادات بجامع الرصافة فسقط من المنبر ، وأقام مريضاً ؛ ثم توفى بعد أيام (نفس المصدر ص ٧٢ ب) .

(٥) كشف المحجوب ص ١٨٤ .

(٦) زبدة الفكرة ص ٤٧ ا — ب .

لجنتك فاحرمنيها ، وإنْ كنتَ تعلم أنى إنما أعبدك حبا منى لك ، وشوقاً إلى وجهك الكريم ، فأبحنيه وافعل بى ما شئت » .

ثم جاء أبو سعيد الجزّار البغدادى المتوفى عام ٢٧٧ هـ — ٨٩٠ م ، وهو تلميذ ذى النون المصرى ، فكان أول من تكلم فى الفناء ، وهو من أقوال الغنوسطيين الأولى ، ولا شأن له مطلقاً بالفرقانا عند الهنود[١] . وكان أبو صالح حمدون بن أحمد بن عمارة القصار النيسابورى المتوفى عام ٢٧١ هـ — ٨٨٤ م أول من سلك طريق الملامة ، ومنه انتشر مذهب الملامتية بنيسابور ؛ وكان يفضل أن يكون مظهره مظهر المذنبين على أن يبعده تعظيم الناس عن الله[٢] ، على أن مذهب الملامتية ليس بجديد ؛ فقد وصف أفلاطون فى أول الكتاب الثانى من الجمهورية حال العادل الحق الذى يُظن به أنه ليس عادلا . وهكذا خرج الصوفية عن طريقهم الأول ، فعلى حين أنهم كانوا فى أول الأمر تدفعهم الغيرة الدينية إلى التدخل فى حياة الناس وإلى « الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » حتى جرّهم ذلك إلى معارضة أمر السلطان أحياناً كما تقدم القول ؛ نجد أبا عمرو إسماعيل بن نجيد المتوفى بمكة عام ٣٦٦ هـ — ٩٧٦ م يُسأل عن التصوف ، فيقول : هو الصبر تحت الأمر والنهى[٣] ، وهذا ينطوى على عدم المبالاة بما يكون عليه حال المجتمع .

---

(١) كشف المحجوب ص ١٤٣ ، ٢٤٢ وما يليها ، على أنه فى القرن الخامس الهجرى والحادى عشر الميلادى شنع على « الصوفية الجاهلين » الذين يقولون بالفناء الكلى ، ومما تلبى ملاحظته أن الهجويرى فى الهند ينتقد هذا القول الذى يقوله الصوفية الجهال ، ويقول إن القول بالفناء الكلى مكابرة (كشف المحجوب ص ٢٤٣) .

(٢) نفس المصدر ص ١٨٣ ، ويحكى القشيرى (ص ١٨) عنه أنه قال : إذا رأيت سكراناً فتمايل لئلا تبقى عليه فيبتلى بمثل ذلك ، وأنه كان يقول : من ظن أن نفسه خير من فرعون فقد أظهر الكبر .

(٣) القشيرى ص ٢٨ .

وكانت بغداد والبصرة مختلفتين فى أمر التصوف ؛ كما كانتا مختلفتين فى مسائل اللغة وعلم الكلام ؛ فكانت بغداد أكبر مركز للمتصوفين ، على حين كانت البصرة أكبر مركز للزهاد ، و بقيت كذلك حتى أيام المقدسى ؛ ويُنسب للحسن البصرى شيخ زهاد البصرة أنه رأى على مالك بن دينار كساء صوف ، فقال له : يعجبك هذا ، قال : نعم ، قال : إنه كان على شاة قبلك[(١)]. ولكن هذا النقد للصوفية لم يمنعهم من أن يضموا إلى رجالهم أكبر رجل من خصومهم ، فيعتبروا الحسن البصرى — وهو أشهر عبّاد العراق — أول أستاذ أوضح سبيل مذهبهم . على أن سند المذهب امتد أكثر من ذلك فأراد قوم أن ينسبوا مذهب التصوف إلى النبى (عليه السلام) لإعطائه صبغة الكلام النبوى المقدس ، فردّوا علم الحسن إلى حُذَيفة بن اليمان الصحابى المشهور ، ويحكى : أن الحسن سئل عن ذلك « فقال أخذته عن حُذَيفة بن اليمان ، وقال حذيفة : خصّنى به رسول الله صلى الله عليه وسلم » ، ويروى أن النبى صلى الله عليه وسلم اختص حذيفة من الصحابة بعلوم منها علم معرفة النفاق والمنافقين وعلم خفايا اليقين ؛ « وكان عمر رضى الله عنه إذا دُعى لجنازة ليصلى عليها ، نظر فإن حضر حذيفة صلى عليها ، وإن لم يَرَ حذيفة لم يُصَلِّ عليها »[(٢)] .

وحوالى أواخر القرن الثالث الهجرى حمل تلاميذُ السرىّ السقطى مذاهب

---

(١) انظر ما يلى ؛ على أنه يحكى أيضاً عن مالك بن أنس أنه سئل عن لباس الصوف فرجال ، فقال : لا خير فى الشهرة ، ومن خليط القطن ما هو فى مثل ثمنه وأبعد عن الشهرة انظر المدخل لابن الحاج ج ٢ ص ١٨ ، ومن هنا ما حكاه جولدزيهر : Goldziher W Z K M. 13. 40 .

(٢) قوت القلوب للمكى ج ١ ص ١٤٩ — ١٥٠ ، وانظر فيما يتعلق بحذيفة : Goldziher Vorlesungen über den Islam. S) 193 . وكان الفراسة ومعرفة ما فى نفوس الناس ووقوع الحوادث فى القلب شأن كبير عند الصوفية فى القرن الرابع (انظر باب الفراسة فى الرسالة القشيرية) .

الصوفية البغداديين إلى أنحاء المملكة الإسلامية ، فحملها موسى الأنصارى بمرو (توفى حوالى عام ٣٢٠ هـ — ٩٣٢ م) إلى خراسان ؛ والروذبارى (المتوفى حوالى عام ٣٢٢ هـ — ٩٣٤ م بالفسطاط) إلى مصر ؛ وأبو زيد الآدمى (المتوفى عام ٣٤١ هـ — ٩٥١ م) إلى جزيرة العرب[١] ؛ وكذلك ظهر التصوف بمدينة نيسابور على يد أبى على محمد بن عبد الوهاب الثقفى المتوفى سنة ٣٢٨ هـ — ٩٤٠ م[٢] ؛ وكانت شيراز بنوع خاص مملوءة بالصوفية حوالى آخر القرن الرابع[٣] وفى النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى لقى الهجويرى الأفغانى « ثلاثمائة من مشايخ الصوفية بخراسان وحدها ، لكل منهم مشرب والواحد منهم يكفى الدنيا بأسرها »[٤] . وكان يعيش فى بغداد حوالى عام ٣٠٠ هـ — ٩١٢ م ثلاثة من كبار مشايخ الصوفية متقاربين وهم : أبو بكر الشبلى المشهور بإشاراته ، وكان أبوه حاجباً بدار الخلافة ، وتولى هو نفسه إدارة دواوين كثيرة ؛ وأبو محمد عبد الله بن محمد المرتعش المتوفى عام ٣٢٨ هـ — ٩٣٩ م صاحب النكت الصوفية ؛ والخلدى المتوفى عام ٣٤٨ هـ — ٩٥٩ م عن خمس وتسعين سنة ، وهو أول من ألف فى تاريخ الصوفية وحكاياتهم ، وقد افتخر بأنه يحفظ أكثر من مائة ديوان من دواوين الصوفية[٥] .

وكان فى المملكة الإسلامية خوانق وأماكن للعبادة قبل ظهور الصوفية ، ويُحكى لنا مثال واحد يدل على التأثر بالمسيحية . يُحكى أن أبا الخير نمر بن جابر

---

(١) روضة الناظرين ص ١٣ .
(٢) القشيرى ص ٢٦ .
(٣) أحسن التقاسيم للمقدسى ص ٤٣٩ .
(٤) كشف المحجوب ص ١٧٤ ، ص ٢١٦ من الأصل الفارسى .
(٥) الفهرست ص ١٨٣ (أ) ؛ وأبو المحاسن ج ٢ ص ٢٩٢ ، وروضة الناظرين ص ١٢ ، ١٣ ، ١٥ .

الطائى المتوفى عام ٢٢٥ هـ — ٨٣٦ م دخل بلاداً كثيرة من ديار الشام ؛ واجتمع بالنصارى ورهبانهم ، وكان جده نصرانيا ثم أسلم تقربا من الأمويين ؛ ولما دخل فى السنة الخمسين من عمره اعتزل الناس فى جوار دمشق ، ولقد ألف كتابا يسمى « العروج فى درج الكمال ، والخروج من درك الضلال » ذكر فيه تاريخ الزهد عند اليهود والنصارى وغير ذلك ؛ وذلك طبقاً لما شاهده عياناً أو سمعه من الرهبان[1].

ويحدثنا المقدسى أنه لقى فى جبل الجولان من جبال الشام أبا إسحاق البلوطى فى أربعين رجلا ، يقتاتون بالبلوط ، يفلقونه ويطحنونه ويخلطونه بشعير برّىّ ، ويلبسون الصوف[2] . وكان الكِرَامية[3] أصحاب محمد بن كِرام هم الذين أنشأوا أكبر عدد من الخوانق ، ويذكر المقدسى أنه كان لهم خوانق كثيرة بإيران وما وراء النهر ، وكان لهم أيضاً خوانق ومجالس ببيت المقدس . وكان لهم فوق ذلك محلّةٌ بالفسطاط ، ويذكر المقدسى أنه قرأ فى كتاب صنّفه بعض مشايخ الكرامية بنيسابور أن بالمغرب صبحالة خانقاه لهم ، ثم يقول : قلت : لا والله ، ولا واحدة ؛ وكان لهم فى خوانقهم مجلسُ ذكر يقرءون فيه من دفتر ، كما كان ذلك لأصحاب أبى حنيفة[4] . وكان الكرامية جماعة من المتسوّلين ، وقد دعوا إلى الزهد وترك الكسب الدنيوى ؛ ويقول المقدسى إنهم لا يخلون من أربع خصال : التقى ، والعصبية ، والقلّ ، والكُدْية[5] . ولم يكن للصوفية خوانق فى ذلك

(١) مجلة المشرق عام ١٩٠٨ ص ٨٨٣ وما بعدها .

(٢) المقدسى ص ١٨٨ .

(٣) الكرامية بكسر الكاف وتخفيف الراء ؛ انظر كشاف اصطلاحات الفنون التهانوى طبعة كلكتة ١٨٦٢ ص ١٢٦٦ .

(٤) المقدسى ص ٣٢٣ ، ٣٦٥ ، ١٧٩ — ٢٠٢ ، ٢٤٨ ، ١٨٢ ؛ والفصل لابن حزم ج ٤ ص ٢٠٤ ؛ ويقول أبو الفدا (تحت سنة ٢٥٥ هـ ج ٢ ص ٢٢٨ من الطبعة الأوروبية) إن محمد بن كرام هو صاحب المقالة فى التشبيه ؛ وهو سجستانى ، وتوفى بالشام .

(٥) المقدسى ص ٤١ ؛ والكلاباذى ص ٩٤ ا — ٩٥ ب فى كتاب التعرف لمذهب =

الوقت[١] وكل ما كان لهم بيوت صغيرة للذكر فى ظاهر المدن سموها رباطات بالاضافة الحربى[٢] . ولكن يظهر أنه كان يعيش فى هذه البيوت المنعزلة بعض العباد ذلك العصر : فيحكى عن على بن إبراهيم الحصرى الصوفى المتوفى عام ٣٧٠ هـ — ٩٨٠ م « أنه كبرت سنه فصعب عليه المجىء إلى الجامع ، فبنى له الرباط المقابل لجامع المنصور ، ثم عرف بصاحبه الزوزنى »[٣] . وكان الكرامية يلبسون رداء من الصوف وفوطة[٤] مُدَلاة على رءوسهم تحيط بقلنسوة طويلة ، ثم لبسوا فيما بعد اللون الأزرق ، إما لأنه لباس الحداد ؛ وإما لأنه كما يقال أيضاً ، يلائم حال قوم فقراء جوّالين فى البلاد[٥] ؛ وربما كان الأول هو الصحيح لأن الفوطة أيضاً كانت لباس الرأس عند الحزن[٦] ، ويقول ابن عبد العزيز السوسى فى القرن الرابع الهجرى من قصيدته التى ذكر فيها تنقله بين المذاهب والديانات ، يصف عهده فى التصوف[٧] .

= أهل التصوف طبع بمصر ١٣٥٢ — ١٩٣٣ ص ٥٧ ، ٧٧ (المترجم) . وانظر Goldziher WZKM 13. s 43 هامش رقم ٢ .

(١) يقول المقريزى (الخطط ج ٢ ص ٤١٤) إن الخوانك حدثت فى حدود الأربعمائة من سنى الهجرة — ويلاحظ القارئ أن بين كلام المؤلف هذا وبين كلامه منذ قليل شيئاً من التناقض . ويقول المقريزى إن أول من اتخذ بيتاً للعبادة جمع فيه العباد وجعل لهم ما يقوم بمصالحهم زيد بن صوحان فى خلافة عثمان بن عفان .

(٢) المقدسى ص ٤١٠ ، والقشيرى ص ١٤ .

(٣) المنتظم لابن الجوزى مخطوط برلين ص ١١٩ أ .

(٤) المقدسى نفس الإشارة .

(٥) كشف المحجوب ص ٥٣ .

(٦) طبقات السبكى ج ٣ ص ٢٥٧ . أما فى القرن الخامس الهجرى ، فكان يندر أن يلبس الصوفية الصوف ، وكانت عاداتهم لبس المرقعة . كشف المحجوب ص ٤٥ وما بعدها ، على أن المرقعة كانت من قبل إلى جانب كساء الصوف لباس الصوفية ثم صارت لباس المتجولين من الصوفية الذين لا ينتمون إلى طريقة معينة وذلك بعد أن صار اتخاذ الصوف علامة الصوفية . انظر القشيرى ص ١٦ ، ١٦٢ ، وإرشاد الأريب لياقوت ج ٢ ص ٩٢ — ٢٩٤)

(٧) يتيمة الدهر للثعالبى ج ٣ ص ٢٣٧ .

سلكت فى مسلك التصوف تنسيسا فكم للذيول قصّرت
سوّيت سجادةً بيوم وأحفيت سبالا قد كنت طوّلتُ

وكان للأغانى الروحية شأن كبير فى عبادات الصوفية ، كما كان الحال بين عُبّاد الألمان فى القرن التاسع عشر . ويقول الجاحظ : « ومن تمام آلة الشعر أن يكون الشاعر أعرابيا ويكون الداعى إلى الله صوفيا »[١] . ويحدثنا المقدسى عن حضوره مجالس الصوفية بمدينة السوس قائلا : « فَكَرّةً أزعق معهم وتارةً أقرأ لهم القصائد »[٢] . وفى القرن الخامس الهجرى زاد الرقص إلى جانب الغناء ، ويقول الهجويرى إنه لقى طائفة من العوام يظنون أن مذهب التصوف ليس إلا الرقص[٣] ، وكذلك يعيب المعرى (المتوفى عام ٤٤٩ هـ — ١٠٥٧ م) ذلك على الصوفية وهو يقول :

أرى جيل التصوف شر جيل فقل لهمو : وأهون بالحلول
أقال الله حين عبدتموه كلوا أكل البهائم وارقصوا لى[٤]

وكانت عادة النساء أن يشاهدن غناء القراويش من فوق الأسطح أو من مكان آخر ، ويحذر الهجويرى المبتدئين من السماع وما يتصل به[٥] . وسرعان ما اخترع الخيالُ الصوفى أن فى الجنة كراسى يجلس عليها الصوفية ، وهى تميل بهم ، وتدور فتكفيهم مؤونةَ الرقص ، وذلك ، كما قالوا ، بأن يبعث الله لأهل الجنة مغانى من الحور العين ، وتُنصب لأهلها المراتبُ والمسانِد ، ثم تغنّى الحورُ

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ ج ١ ص ٤١ ، على أن المؤلف يريد أن يفهم أن كلام الجاحظ معناه أن الشاعر الروحى الحقيقى لا بد أن يكون صوفيا .
(٢) المقدسى ص ٤١٥ .
(٣) كشف المحجوب ص ٤١٦ انظر أيضاً ص ٤٣ .
(٤) الإرشاد ج ٢ ص ١٢٥ . (المترجم)
(٥) كشف المحجوب ص ٤٢٠ .

العين بأصواتٍ لم يُسمع أحسن منها ، ويقول الله للحور العين : اسمعن عبادى الذين نزهوا أنفسهم عن مطربات الدنيا وتلذذوا بسماع كلامى وأحاديث الرسول عليه السلام ، فيطرب القوم ويهيمون ، فتقدم الملائكة إليهم كراسىَ من ذهب ، وتقول لهم : لاتزعجوا أعضاءكم بالرقص ، فقد كفى ما تعبتم فى الدنيا بالصلاة والعبادة واجلسوا على تلك الكراسى ، وهى تميل بكم وتدور ؛ فيغيبون عن وجودهم من الطرب[1] .

ولم يكن ثمّ ما يوجب الكُدْيَةَ على الصوفية ؛ ولكن الخوارزمى يقول إن « الفقير خفيف الظهر من كل حق ، منفك الرقبة من كل رقّ ، لا يلزمه أداء الزكاة ، ولا تتوجه إليه غوائل النائبات ، ولا يستبطئه إخوانه ، ولا تطمع فيه جيرانه ، ولا تنتظر فى القطر صدقته ، ولا فى العيد أضحيته ، ... فإنما هو مسجد يُحمل إليه ولا يحمل عليه ، وعلوىّ يؤخذ بيديه ولا يؤخذ من يديه .... فهذا إما غانم أو سالم »[2] ؛ وكذلك سُمّى الصوفية فقراء[3] ، وكان المحبّون لأهل الطرق الصوفية يدعونهم إلى الطعام ، ويحكى لنا المقدسى أنه دعت به الظروف إلى مجلس الصوفية بشيراز ، فأراد معرفة طريقتهم وحقائقهم ، وحلّ من قلوبهم بحيث لا غاية ، وقصده الزوّار ، وحُملت إليه الثيابُ والصُّرَر ، فكان يأخذ ذلك ويدفعه إليهم وهو يبين سبب ذلك قائلا : « لأنى كنت غنيا فى وسطى نفقة وافرة ، وأنا كل يوم فى دعوة وأىّ دعوة »[4] . وكان الشيخ أبو عبد الله أحمد بن عطاء

---

(١) قرة العيون ومفرح القلب المحزون لأبى الليث السمرقندى على هامش الروض الفائق فى المواعظ والرقائق طبعة مصر ١٣١١ هـ ص ٢١١ وما بعدها .

(٢) رسائل الخوارزمى ص ٩٠ ؛ على أنه ليس من المحقق أن الخوارزمى يقصد بالفقير الصوفىّ ، لأنه يتكلم بعد ذلك مباشرة عن الغنى فيقول إنه غنية كل يد سالبة ، وصيْد كل نفس طالبة ، هذا مع أن تسمية الصوفى بالفقير تسمية مألوفة . (المترجم)

(٣) المقدسى ص ٤١٥ ؛ والقشيرى ص ١٢ ، ٢١ ، ٣٠ .

(٤) المقدسى ص ٤١٥ ، القشيرى ص ٣٠ .

الروذبارى (الثانى ، وهو ابن أخت أبى على الروذبارى) المتوفى بمصر سنة ٣٦٩هـ — ٩٧٩ م ، وشيخ الشام فى وقته ، إذا دعا أصحابه معه إلى دعوة فى دور السوقة ومن ليس من أهل التصوف ، لا يخبر الفقراء بذلك ، وكان يُطعمهم شيئاً ، فإذا فرغوا أخبرهم ، ومضى بهم ، فكانوا قد أكلوا قبل ذهابهم بقليل ، فلا يمكنهم أن يمدّوا أيديهم إلى طعام الدعوة إلا بالتعزز ، وإنما كان يفعل ذلك لئلا تسوء ظنون الناس بهذه الطائفة فيأثموا بسببهم[1] . وكان خاله أبو على الروذبارى (المتوفى عام ٣٢٢ أو ٣٣٣ هـ — ٩٣٣ م) أحد أئمة الصوفية ، وكان بغدادى الأصل ، وأقام بمصر ؛ وكان من أبناء الوزراء والرؤساء ، يتصل نسبه بكسرى أنو شروان ، ويروى أنه « اتخذ مرة أحمالا من السكر الأبيض ، ودعا بجماعة من الحلوانيين حتى عملوا من السكر جداراً عليه شرافات ومحاريب على أعمدة ونقشوها كلها من سكر ، ثم دعا الصوفية حتى هدموها وكسروها وانتهبوها »[1] وكان الصوفية فى كثير من الأحيان مشهورين بكثرة الأكل حتى يُضرب المثل « بأكل الصوفية »[2] .

وكان أكبر الآفات على الصوفية فى ذلك العصر « معاشرة الحالقين ورفقة النساء » ؛ وهذه هى بعينها الآفات التى تعرّض لها الفقراء المسيحيون فى العصور الوسطى ؛ على أنه أُضيفت إلى ذلك آفة شرقية خاصة هى « صحبة الأحداث »[3] . ويُحكى عن أبى سعيد الخراز المتوفى عام ٢٧٧ هـ — ٨٩٠ م أنه قال : « رأيت إبليس فى النوم ، وهو يمرّ على ناحية ، فقلت له : تعال ، مالك ! فقال : إيش أعمل بكم ، أنتم طرحتم عن نفوسكم ما أخادع به الناس ؛ فقلت : وما هو ؟ قال :

---

(١) طبقات السبكى ج ٢ ص ٩٩ — ١٠٢ والقشيرى أيضاً ص ٢٦ .
(٢) ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب للثعالبى ص ١٢٦ — ١٣٢ .
(٣) القشيرى ص ٢٢ .

الدنيا ؛ فلما ولى عنى التفت إلىّ ، وقال : غير أنّ لى فيكم لطيفةً ، قلت : وما هى ؟ قال : صحبة الأحداث »[١] . ويُروى عن الواسطى المتوفى بعد عام ٣٢٠ هـ — ٩٣٢ م أنه قال : « إذا أراد الله هوان عبد ألقاه إلى هؤلاء الأنتان والجيف » ، يريد به صحبة الأحداث[٢] . ويعترف الحجويرى فى القرن الخامس الهجرى، أنه قد بلغ من جهال الصوفية أنهم جعلوا صحبة الأحداث من مذهبهم ، وأن بعض العوام أخذوا عليهم ذلك وأنكروه[٣] .

على أنه قد ظهرت عند الصوفية نزعة قديمة إلى عدم المبالاة بكل ما فى هذه الدنيا حتى بالشريعة ؛ فيحكى ابن حزم « أن من الصوفية من يقول إن من عرف الله سقطت عنه الشرائع ، وزاد بعضهم : واتصل بالله تعالى . وبلغنا أن بنيسابور اليوم فى عصرنا هذا رجلا يكنى أبا سعيد أبا الخير من الصوفية ، مرة يلبس الصوف ، ومرةً يلبس الحرير المحرّم على الرجال ، ومرةً يصلى فى اليوم ألف ركعة ، ومرة لا يصلى فريضةً ولا نافلةً ، وهذا كفر محض ، ونعوذ بالله من الضلال ... »[٤] ، ويشكوابن حزم فوق ما تقدم من أن طائفة من الصوفية ادعت « أن فى أولياء الله تعالى من هو أفضل من جميع الأنبياء والرسل ؛ وقالوا : من بلغ الغايةَ القصوى من الولاية سقطت عنه الشرائع كلها من الصلاة والصيام والزكاة وغير ذلك ، وحلّت له المحرماتُ كلها من الزنى والخمر وغير ذلك ، واستباحوا بهذا نساء غيرهم ، وقالوا إننا نرى الله ونكلمه ، وكل ما قُذف فى نفوسنا فهو حق »[٥] . ويقول الحجويرى إن دعوى « سقوط الشريعة إذا كُشفت الحقيقة » هى مقالة الزنادقة من القرامطة

---

(١) نفس المصدر ص ٢٣ .
(٢) نفس المصدر ص ٢٤ ، وقارن ص ١٨٤ .
(٣) كشف المحجوب ص ٤١٦ ، ٤٢٠ .
(٤) الفصل لابن حزم ج ٤ ص ١٨٨ .
(٥) نفس المصدر ج ٤ ص ٢٢٦ . وانظر Schreiner, ZDMG 52 476 .

والشيعة ومن وسوسوا إليهم من الأتباع[١] . ويحكى القشيرى أنه سمع الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى يقول سمعت أبا القاسم الدمشقى يقول : سُئل أبو على الروذبارى (المتوفى عام ٣٢٢ هـ — ٩٣٣ م) عمن يسمع الملاهى ويقول : هى لى حلال ، لأنى وصلت إلى درجة لا تؤثر فى اختلاف الأحوال ، فقال : نعم ، قد وصل ، ولكن إلى سقر[٢] .

وكان أكثر الصوفية القدماء متزوجين ، ويحكى أن امرأة أحد الصوفية كانت سيئة الخلق تستطيل عليه ؛ وأعطته مرة درهمين من ثمن غزلها ليشترى الدقيق ، فلقى فى طريقه جارية تبكى لأنها أضاعت درهمين لسيدها ، فخافت أن يضربها فدفع إليها الدرهمين ، وتعمد على حانوت صديق له يشق الساج ، وذكر له الحال ، وما يخاف من سوء خلق امرأته ، فقال له : خذ من هذه النشارة فى الجراب لعلكم تنتفعون بها فى سجر التنور ، إذ ليس فى إمكانى مساعدتك بشىء آخر ، فحمل الصوفى النشارة ، وفتح باب داره ، ورمى بالجراب ، وردّ الباب ، وذهب إلى المسجد إلى ما بعد العتمة ليأخذ أهله النوم ولا تستطيل عليه زوجته ، فلما فتح الباب وجدهم يخبزون الخبز ، فقال : من أين لكم هذا الخبز ؟ قالوا : من الدقيق الذى كان فى الجراب ، لا تشتر غير هذا الدقيق ، قال أفعلُ إن شاء الله ، وهكذا لم ينقذه من سوء خلق امرأته إلا كرامة[٣] . وكانت تخدم الجنيد جارية تسمى زيتونة ، وكذلك خدمت شيخين غيره ، ويدل اسمها[٤] على أنها كانت أمة مملوكة ؛ وأعطى الجنيد جارية أخرى أهديت إليه إلى أحد أصحابه ليتزوجها[٥] .

---

(١) كشف المحجوب ص ٣٨٣ .
(٢) القشيرى ص ٢٦ .
(٣) نفس المصدر ص ١٦٨ .
(٤) نفس المصدر ص ١٧١ .
(٥) روضة الناظرين ص ١٠ .

وكان الشبلى متزوجا[١] . ويحكى عن أبى الحسين أحمد بن أبى الحوارى ، ريحانة الشام ، المتوفى عام ٢٣٠ هـ — أنه كان له أربع نساء ، وعن معاصره أبى عبدالرحمن حاتم الأصمّ من أكابر مشايخ خراسان أنه خلف تسعة أبناء[٢] ، ومما يزيد فى غرابة مثل هذه الحكايات أننا نجد بين جماعة الزهاد العباد الذين لاينتمون لأهل التصوف من تمسك بالتجريد أعنى العزوبة ، وهى نزعة غير إسلامية مطلقاً ؛ ففى كتاب بستان العارفين ص ١٩٧ — ١٩٨ لأبى الليث السمرقندى الحنفى المتوفى عام ٣٨٣ هـ — ٩٩٥ م حضّ من يستطيع الاستغناء عن الزواج أن يظل حصوراً ، وأن يتفرغ إلى عبادة الله ، فهى أفضل[٣] . ولابد أن يكون هذا الرأى قد غلب على الصوفية فى القرن الرابع الهجرى ، حتى يقول الهجويرى فى القرن الخامس : « وقد أجمع رأى شيوخ هذه الطريقة على أن أحسن الصوفية وأفضلهم المجرّدون فإن قلوبهم خالية من الآفات ، وطباعهم معرضة عن المعاصى والشهوات . وبالجملة فإن أساس هذه الطريقة هو التجريد وأن الزواج لغيرهم »[٤] .

ولكن كلام الهجويرى هذا يخالف ما قد وقع تمام المخالفة ، والهجويرى أيضاً أول من حكى عن الصوفية أنهم يتزوجون فى الظاهر فقط ، فذكر أن أحد مشايخ الصوفية فى القرن الثالث الهجرى عاش مع زوجته خمسة وستين عاما من غير أن يقربها[٥] ، وحكى عن أبى عبد الله محمد بن خفيف الشيرازى المشهور ، المتوفى عام ٣٧١ هـ — ٩٨١ م[٦] ، وكان من أبناء الملوك ، أن بنات الملوك والرؤساء

---

(١) نفس المصدر ص ١٢ .
(٢) نفس المصدر ص ١٩٨ .
(٣) Amedroz Notes on some sufi liues JRAS 1912 s 558 .
(٤) كشف المحجوب ص ٣٦٣ .
(٥) نفس المصدر ص ٣٦٢ .
(٦) يقول القشيرى إنه توفى عام ٣٩١ هـ . (المترجم)

لن يتقربن منه تبركا حتى يعقد عليهن ، وقد عقد أربعمائة نكاح ، ولكنه كان يقبل الزواج ثم يطلقهن قبل الدخول بهن[1] على أن الهجويرى نفسه لم يكن متزوجاً ، وهو يقول : « وبعد أن صانني الله من آفة الزواج أحد عشر عاما قُدِّر لى أن أقع فى فتنة وأن أصير أسيراً لتلك التى لم أرها ، وبقيت فى ذلك عاما حتى قرب دينى من الهلاك إلى أن منّ الله على بكمال فضله وتمام لطفه فأرسل عصمته إلى قلبى الضعيف وخلصنى من هذه الأوزار ، فالحمد لله على جزيل نعمائه »[2].

ويظهر أن كثيرين من الصوفية أنفسهم لم يرضوا عن تطور مذهبهم واتجاهه إلى ما انتهى إليه ، ولما صنّف الشيخ أبو سعيد الأعرابى المتوفى عام ٣٤١هـ — ٩٥٢ م كتاب طبقات النساك ، وهو أول كتاب فى ذلك ، وصف أول من تكلم فى هذا العلم ، ثم من بعده من البصريين والشاميين وأهل خراسان إلى أن كان آخرهم البغداديين ، وهو يجعل أول التصوف آخره فيقول مثلا إنه آخر من تكلم فى هذا العلم الجنيد وإنه ما بقى بعده « إلا من مجالسته غيظ » ، « وإلا من يُستحيى من ذكره »[3] ، وقد حكى عن أبى سهل التسترى الإمام الصوفى (المتوفى عام ٢٧٣ هـ — ٨٨٦ م أو ٢٨٣ هـ — ٨٩٦ م كما يقول القشيرى) أنه « كان يقول : بعد سنة ثلثمائة لا يحل أن يتكلم بعلمنا هذا ، لأنه يحدث قوم يتصنّعون للخلق ، ويتزينون بالكلام ، لتكون مواجيدهم لباسهم ، وحليتهم كلامهم ، ومعبودهم بطونهم »[4] . وفى سنة ٤٣٧ هـ — ١٠٤٥ م كتب عبد الكريم بن هوازن القشيرى رسالته المشهورة إلى جماعة الصوفية ببلدان الإسلام ، وذلك أنه لما رأى انقراض أكثر شيوخ الصوفية المحققين ، وفساد

---

(١) كشف المحجوب ص ٢٤٧ .

(٢) نفس المصدر ص ٣٦٤ ، ص ٤٧٦ من النص الفارسى .

(٣) قوت القلوب لأبى طالب المكى ج ١ ص ١٦٢ .

(٤) نفس المصدر .

حال كثير من الباقين ألف رسالته ، وذكر فيها سيراً من سير شيوخ هذه الطريقة فى آدابهم وأخلاقهم ومعاملاتهم وعقائدهم لتكون قوة للصوفية وعوناً على صلاح أمرهم ؛ ومما قاله فى أولها : « اندرست الطريقة بالحقيقة ، ومضى الشيوخ الذين كان بهم الاهتداء ؛ وقلّ الشباب الذين كان لهم بسيرتهم وسنتهم اقتداء ؛ وزال الورع وطُوى بساطُه ، واشتد الطمع وقَوى رباطُه ؛ وارتحلت عن القلوب حرمةُ الشريعة ، فعدّوا قلةَ المبالاة بالدين أوثقَ ذريعة ؛ ورفضوا التمييز بين الحلال والحرام ؛ ودانوا بترك الاحترام وطرح الاحتشام ؛ واستخفوا بأداء العبادات ؛ واستهانوا بالصوم والصلاة ، وركضوا فى ميدان الغفلات ؛ وركنوا إلى اتباع الشهوات ، وقلة المبالاة بتعاطى المحظورات ؛ والارتفاق بما يأخذونه من السوقة والتسوان وأصحاب السلطان ؛ ثم لم يرضوا بما تعاطوه من سوء هذه الأفعال حتى أشاروا إلى أعلى الحقائق والأحوال ، وادعوا أنهم تحرروا عن رق الأغلال ، وتحققوا بحقائق الوصال ؛ وأنهم قائمون بالحق تجرى عليهم أحكامه ، وهم حُرٌ ، وليس لله عليهم فيما يؤثرونه عتبٌ ولا لوم ؛ وأنهم كوشفوا بأسرار الأحدية ، واختُطفوا عنهم بالكلية ، وزالت عنهم أحكام البشرية »[1] . وفى هذا العصر المتأخر أثرت عن علماء مشايخ الصوفية حكاياتٌ تدل على شدة وقسوة فى قمع شهوات النفس والتكثير عن ميولها ، ويشبه أن تكون هذه الحكايات إنما اخترعت ونسبت لأصحابها دفعاً لما شاع من ركوض بعض المتصوفة فى الشهوات وتعاطيهم للمحظورات ؛ فيُحكى عن السرى السقطى المتوفى عام ٢٥١ هـ أو ٢٥٧ أنه كان إذا أفطر كل ليلة ترك لقمة ، فإذا أصبح جاءت عصفورة ، وأكلت تلك اللقمة من يده ؛ وذات يوم اشتهى أكلَ الخبز بالقديد فامتنعت العصفورة من أكل اللقمة ، فعاهد نفسه

---

(١) مقدمة الرسالة القشيرية ص ٢ — ٣ .

ألا يتناول أبداً شيئاً من الأدام[1] وقد لبث ستين سنة لم يضطجع ، فإذا غلبه النوم نام قاعداً القرفصاء[2] .

وتُحكى عنه حكاية شبيهة بما يؤثر عن ديوجينيس (Diogenes) ، قال الجنيد : « دخلت يوماً على السرىّ السقطى ، وهو يبكى فقلت له : ما يبكيك ؟ فقال : جاءتنى البارحة الصبيّة ، فقالت : يا أبت ؟ هذه ليلة حارة ، وهذا الكوز أُعلِّقُه ههنا ؛ ثم إنه حملتنى عيناى فنمت ، فرأيت جارية من أحسن الخلق ، قد نزلت من السماء ، فقلت : لمن أنت ؟ فقالت : لمن لا يشرب الماء المبرَّد فى الكيزان ، فتناولت الكوز فضربت به الأرض فكسرته »[3] . ويُحكى عن أبى محمد رُوَيْم ابن أحمد البغدادى المتوفى عام ٣٠٣ هـ — ٩١٥ م أنه اجتاز ببغداد وقت الهاجرة ببعض السكك ، وهو عطشان ، فاستسقى من دار ، ففتحت الصبيةُ بابها ، ومعها كوز ماء ، فأخذ منها وشربه ، فقالت الجارية : صوفىّ يشرب بالنهار ! فما أفطر بعد ذلك اليوم قط[4] ؛ ويروى عن الجنيد أن وِرْده كان فى كل يوم وليلة ثلثمائة ركعة وثلاثين ألف تسبيحة[5] ، وأقام عشرين سنة لا يأكل إلا من الأسبوع إلى الأسبوع[6] ، على أنه يحكى خلافاً لهذا أنه كان بديناً ، ولذلك كان يشك الناس فى زهده[7] . ويحكى عن أبى نصر بشر الحافى المتوفى سنة ٢٢٧ هـ أنه مر ببعض الناس ، فقالوا : هذا الرجل لا ينام الليل كله ، ولا يفطر إلا فى كل ثلاثة

---

(١) عجائب المخلوقات للقزوينى طبعة فستنفلد ص ٢١٦ ، والقشيرى ص ١٠ .

(٢) روضة الناظرين للوترى ص ٨ .

(٣) القشيرى ص ١١ .

(٤) القشيرى ص ٢١ ؛ والقزوينى ص ٢١٨ .

(٥) زبدة الفكرة ص ١٤٦ أ .

(٦) القزوينى ص ٢١٦ .

(٧) روضة الناظرين ص ١٢ وتحكى حكايات أخرى كلها من المصادر المتأخرة وتدل على الزهد التام ، انظر Amedroz. JRAS 550 ff .

أيام مرة ، فبكى بشر ، فقيل له فى ذلك ، فقال : إنى لا أذكر أنى سهرت ليلة كاملة ، ولا أنى صمت يوماً ولم أفطر من ليلته ، ولكن الله سبحانه وتعالى يلقى فى القلوب أكثر مما يفعله العبد لطفاً منه سبحانه وكرما[1] .

ولا نجد مفرا من القول بأن مذاهب الصوفية تأثرت بمذاهب المعتزلة ؛ ذلك أن الصوفية أخذوا المسائل والمناهج من المعتزلة ، فتأمل مثلا قول أبى على ابن الكاتب الصوفى المتوفى سنة نيف وأربعين وثلاثمائة (٣٤٠ هـ — ٩٥١م) « إن المعتزله نزّهوا الله من حيث العقل فأخطأوا ، والصوفية نزّهوه من حيث العلم فأصابوا »[2] ، ولذلك انتشر مذهب التصوف أسهل انتشار بين معتزلة فارس[3] ، ثم إن الصوفية جعلوا مسألة القدر — وهى أهم شىء عند المعتزلة — نقطة أساسية من مذهبهم ، فقالوا بالجبر على نحو لا تناقض فيه : يُحكى عن أبى عبد الله أحمد بن يحيى الجلاّء أنه قال « من استوى عنده المدح والذم فهو زاهد ، ومن حافظ على الفرائض فى أول مواقيتها فهو عابد ؛ ومن رأى الأفعال كلها من الله عز وجل فهو موحّد لا يرى إلا واحدا »[4] .

---

(١) القشيرى ص ١١ .

(٢) القشيرى ص ٢٧ ؛ ومعنى هذا أن المعتزلة نفوا عن الله العقل بالمعنى الإنسانى ، والصوفية نفوا عنه المعرفة العلمية الاستدلالية . انظر ما قاله الأستاذ ماسينيون فى هامش كتابه الطواسين ص ١٨٧ . ولكن لعل صاحب هذا القول يقصد أن المعتزلة نزهوا الله مستندين فى ذلك إلى العقل والنظر ، فانتهوا إلى التعطيل وما يشبهه النفى ، على حين أن الصوفية لم يلجأوا إلى العقل ، بل إلى الأخذ بالشرع فى ظاهره وإلى العلم المنزل وإلى طريقتهم فى التصفية ليحصل لهم العلم به من غير رجوع إلى النظر . (المترجم)

(٣) كان أبو القاسم على بن أحمد بن مبروك الزوزنى الشاعر متفنناً فى العلوم ، قائلا بالاعتزال والزهد والتصوف (يتيمة الدهر ص ٣٢٤) ؛ وكذلك كان أبو حيّان التوحيدى أكبر كتاب النثر فى القرن الرابع الهجرى متفننا فى الكلام على مذهب المعتزلة ، وكان صوفىّ السمت والهيئة (الإرشاد لياقوت ج ٥ ص ٣٨٠) .

(٤) القشيرى ص ٢٠ ؛ ولكن توحيد الصوفية على هذا المعنى يناقض ما ذهب إليه المعتزلة من قولهم باختيار الإنسان فى أفعاله وخلقه لها .

والجبر عند الصوفية ليس هو ذلك الذي يردده جماعة الفلاسفة من القول بالارتباط الضروري بين الأسباب والمسببات ، بل إن الصوفية جعلوا للجبر معنى دينيا . وكان الإسلام قد دعا من أول الأمر إلى الثقة بالله والتوكل عليه ؛ أما الصوفية فإنهم لم يألوا جهداً في دعوة الناس إلى التوكل على الله والثقة المطلقة به ، تاركين الأمر كله لمشيئته من غير أن يعملوا شيئاً ، ذاهبين إلى أن « أول مقام التوكل أن يكون العبد بين يدى الله عز وجل كالميت بين يدى الغاسل يقلبه كيف شاء لا يكون له حركة ولا تدبير »[1] ، ومعظم كرامات الصوفية إنما هي جزاء وتحقيق لهذه الثقة التي بفضلها تنفتح خزائن الله . وكان التوكل أكبر عقيدة للصوفية في القرن الرابع الهجرى[2] . وكان مذهبهم يقوم على أربعة أصول ؛ فكان فيها بعد التوكل الصبر والرضا والرجاء ، وهذا شبيه باعتقاد البروتستانت بالفضل الإلهي . وقد أثر الصوفية تأثيراً قوياً في الإسلام من طريق قولهم بالتوكل حتى طبعوه بطابعه ، وهو ما يسمى بالاستسلام أو الجبر الإسلامي (Muhammedanische Fatalismus) ولم يكن للقول بالجبر عند المتكلمين ولا عند المنجمين من الأثر ما كان لتوكل الصوفية ، لأن الصوفية كانوا يطبقون قاعدة التوكل ، جادين كل الجد ، في شؤون الحياة اليومية العملية . على أن الاصطلاحات الإسلامية الخاصة بالجبر ، لم يكن ظهورها في هذا العصر ، بل هي جمعت فيه ورسخت كما

---

(١) ونجد هنا لأول مرة التمثيل بالميت بين يدى الغاسل ، ولم يكن هذا التشبيه قد أصبح في القرن الرابع شيئاً عاديا مألوفا . ولما كان الكلاباذى (المتوفى عام ٣٨٠ هـ — ٩٩٠ م) قد ذكره (انظر مقالة الأستاذ جولد زيهر Goldziher, Materialien Zur Entwicklungsgeschichte ees Sufismus, WZKM. 1890, s. 42 فإن المكى (المتوفى عام ٣٨٦ هـ — ٩٩٦ م) لم يذكره ؛ وذلك خلافاً للقشيرى (ص ٧٦) وقد بين جولد زيهر في مقاله المتقدم شأن القول بالتوكل عند الوهابية .

(٢) انظر مثلا باب التوكل في رسالة القشيرى (المترجم)

هى عليه اليوم[١] ؛ وهذه هى النقطة الهامة ، وقد رسّخ المتصوفة فى ذهن كل مسلم بكلامهم البليغ ؛ وبأمثالهم ، أن الأرزاق قد قُسمت ، وكُتبت قبل خلق الناس بزمان طويل ، « وأن لكل عبد رزقا هو آتيه لا محالة ؛ ولو هرب العبد من رزقه ، كما لو هرب من الموت ، لأدركه »[٢] ! « وأن من اهتم برزق غد وعنده اليوم قوت فهى خطيئة تُكتب عليه »[٣] ؛ وأن رزق كل إنسان قد كُتب فى اللوح المحفوظ ، « ولا يُزادُ فيه بحول ولا حيلة »[٤] ، وأن الأرزاق قد خلقت قبل خلق الأجسام بألفى عام[٥] .

وقد كان وهب بن الورد يقول : « لو كانت السماء نحاساً والأرض رصاصاً ثم اهتممت برزق لظننت أنى مشرك »[٦] ، وأخيراً قوّى الصوفية روح التوكل ، كما دعا إليه الزهاد العباد ، وحث عليه النصوص المأثورة — وهذا شىء فى غاية الأهمية من الناحية الدينية — وفسّروه بأنه الرضا التام بكل الأحكام الإلٰهية[٧] والسرور باستقبال مجارى القضاء كلها ، بحيث يكون العبد راضياً عن المصيبة والنعمة على السواء ، ويحكى عن رابعة أنها سئلت متى يكون العبد راضياً ؟

---

(١) أما كلمة الفتوح (كقولهم العيش من الفتوح أو على الفتوح من أبواب الرزق) وهو الاصطلاح الذى صار فيما بعد هو وحده المستعمل عند الصوفية ، فقد كان فى هذا العصر نادر الاستعمال وإن كان يذكر بين حين وآخر (انظر Goldziher, WZKM, 1890, s 48 ff.)

(٢) قوت القلوب ج ٢ ص ٧ . (٣) نفس المصدر ص ٩ .

(٤) نفس المصدر ص ٧ .

(٥) قوت القلوب ج ٣ ص ١١ من طبعة ١٣٥١ هـ — ١٩٣٢ م .

(٦) قوت القلوب للمكى ج ٢ ص ٩ .

(٧) يقول القشيرى (ص ٨٩) : « وقد اختلف العراقيون والخراسانيون فى الرضا : هل هو من الأحوال أو من المقامات ؟ فأهل خراسان قالوا : الرضا من جملة المقامات وهو نهاية التوكل ، ومعناه أنه يؤول إلى أنه مما يتوصل إليه العبد باكتسابه ؛ وأما العراقيون فانهم قالوا الرضا من جملة الأحوال ، وليس ذلك كسبا للعبد ، بل هو نازلة تحل بالقلب كسائر الأحوال » (المترجم)

فقالت : إذا سرتْه المصيبةُ كما سرته النعمة ؛ ويحكى عن بعض مشايخ الصوفية أنه قال : أرجو أن أكون عرفتُ طرفاً من الرضا : لو أدخلنى النار لكنت بذلك راضياً[١] . وتدل على توكل الصوفية الحقيقيين تلك الحكاية المشهورة التى تروى عن الدرويش الذى وقع فى دجلة ، فقد أبصره رجل من المارة ورأى أنه لا يعرف السباحة ، فقال له : أتريد أن أرسل إليك من ينقذك ؟ فقال : لا ؛ فقال له الرجل : أفتريد أن تغرق؟ فقال : لا ، فقال له : فأى شىء تريد ؟ فقال : أى شىء أريد ! أريد ما يريده الله لى[٢] . وفى أوائل حركة التصوف كان المحاسبى (المتوفى فى عام ٢٤٣هـ — ٨٤٨ م) أول من فصل بين الرضا بمجارى الأحكام الإلهية وبين التوكل بمعناه المعروف ، وقال إن الرضا من جملة الأحوال التى لا تكتسب وإنما هى نوازل تحل بالقلب[٣] . وهو أول من جعل للرضا الحظ الأوفر من عنايته . ونستطيع أن نعتبر المحاسبى مؤسس مذهب الاستسلام Fatalismus الذى ينسب للمسلمين[٤] على أن الصوفية لم يبنوا عقيدتهم فى القدر ولم يهضموها على أساس المنطق ، واقتصروا فى ذلك على الناحية العملية الدينية ، فمن ذلك أنهم مثلا لم يغتروا بالعلم النظرى فيؤدى بهم المنطق إلى رأى صارم صلب فيما ذهبوا إليه بين حين وآخر من القول بالقدر[٥] .

أما القاعدة الثانية الكبرى فى مذهب الصوفية ، وهى مسألة الولاية ، فإنها

---

(١) القشيرى ص ٨٩ — ٩٠ (باب الرضا) .

(٢) كشف المحجوب ص ١٨٠ ، ٣٧٩ وما بعدها .

(٣) انظر نص القشيرى المتقدم وكتاب كشف المحجوب ١٧٦ وما بعدها .

(٤) على أن المحاسبى مع قوله بالتوكل يعتبر العمل واجباً كالجزى على المعاش . ويقول إن العمل فى بعض الأحيان فضل ينال الإنسان عليه الثواب . وهذا موجود فى كتاب المكاسب للمحاسبى ، وفيه نقد لشقيق البلخى المتوفى عام ١٩٤ هـ وهو القائل بالتوكل من غير عمل ومؤسس مذهب الاستسلام . (المترجم)

(٥) قوت القلوب للمكى ج ٢ ص ٧ .

مذهب نصرانى غنوسطى . والولى[١] هو من يواليه الله وينصره ، وهذه فكرة صوفية أحدثها الصوفية فى الإسلام ، لم ينفك عنها فى كل عصوره ؛ وهذا هو أكبر نجاح ظاهر للصوفية وهو النجاح الذى بدأ يظهر فى القرن الرابع الهجرى . وينسب للمحاسبى (المتوفى عام ٢٤٣ هـ — ٨٤٨ م)[٢] الذى تأثر بالمسيحية تأثراً قويا أنه تكلم فى مسألة درجات الأولياء وفى مقدمات الحياة الصوفية[٣] . ويقال إن الذى بنى مذهبه على القول بالولاية هو أبو عبد الله محمد بن على الحكيم الترمذى المتوفى عام ٢٨٥ هـ — ٨٩٨ م ، وينسب إلى الترمذى أنه قال إن عيسى عليه السلام خاتم الأولياء[٤] . أما مؤرخو القرن الرابع وأصحاب التراجم فيه فلا يعرفون من الأولياء إلا الطائفة المسمين بالأبدال[٥] . ويذكر ابن دريد

---

(١) انظر المعانى الأولى لهذه الكلمة فى كتاب جولد زيهر Goldziher المسمى Muhammedanische Studien II 286 .f انظر معنى الكلمة أيضاً فى رسالة القشيرى ص ١٦٠ وكانت كلمة الولى فى القرن الرابع تستعمل فى معنى عادى غير دينى بمعنى القريب أو النصير . انظر رسائل الصابى مخطوط ليدن رقم ٧٦٦ ص ٢١٥ ب ، ٢١٩ أ (؟) ، ٢٢٠ أ ، ٢٢٦ ب) . وفى رسالة القشيرى ص ١٧٤ يوصف الجندى بأنه أحد أولياء السلطان : « ولقد تقاتل اثنان أحدهما من أولياء السلطان والآخر من الرعية » وانظر أيضاً رسائل الخوارزمى ص ٢٦ ، ٢٧ .

(٢) انظر ما تقدم عن المحاسبى فى أوائل هذا الفصل .

(٣) Margoliouth' Verhandl 3 Kong. f. Religionsgeschichte Oxford, Bd I, s. 292

(٤) انظر أوائل هذا الفصل .

(٥) ربما كانت هذه الكلمة تعريباً لكلمة الفارسية التى تدل على الآباء وهى : پدر ، وهى التى تدل على القائد الروحى منذ عهد المتوسطين إلى عهد فرقة اليزيديين (پير) ويحكى عن أبى ثوبة (المتوفى عام ٢٤١ هـ) والذى ولد بحلب وعاش فى طرسوس أنه كان من الأبدال (طبقات الحفاظ للذهبى طبعة فستنفلد ج ٢ ص ١٨ ؟) وفى سنة ٢٤٢ هـ مات الطوسى أحد الأبدال (نفس المصدر ص ٣٢ ، ٣٣ ؟) وفى عام ٢٦٥ مات إبراهيم بن هانئ النيسابورى وكان من الأبدال (تاريخ أبى الفدا تحت عام ٢٦٥ هـ (ج ٢ ص ٢٥٦)) وكذلك كان ... ابن عبد الله نساج صوفى المتوفى عام ٣٢٢ هـ من الأبدال (ابن الأثير ج ٢ ص ٢٢ وفى سنة ٣٢٧ هـ توفى أبو محمد عبد الرحمن بن أبى حاتم التميمى الحنظلى وكان زاهداً يعد .

المتوفى عام ٣٢١ هـ — ٩٣٣ م أن الأبدال جمع بديل وهم فئة من الصالحين لاتخلو الدنيا منهم أبداً وعددهم سبعون ، أربعون منهم فى الشام ، وثلاثون فى سائر البلاد[١] .

أما الهجويرى فى القرن الخامس الهجرى فهو يذكر طبقاتٍ أخرى من الأولياء : فهناك ثلاثمائة يسمون الأخيار ، وأربعون يسمون الأبدال ، وسبعة يسمون الأبرار ، وأربعة يسمون الأوتاد ، وهم يطوفون العالم بجملته فى كل ليلة ، ثم أيضاً ثلاثة نُقَباء ، وأخيراً يوجد القطب أو الغوث ، والأولياء هم ولاة العالم ، والحل والعقد منوط بهم ، وتدبير العالم موصول بهمتهم[٢] . ومن الجلى أن القطب هو الصورة الموروثة للإله (Demiurgos) عند الغنوسطيين ، وكانت صحراء تيه بنى إسرائيل تعتبر فى ذلك الوقت موضع لقاء الغوث[٣] وكانت الأُبُلَّة مقر الأبدال[٤] . ولم يكن يأبى الاعتراف بالأولياء إلا المتمسكون بالنصوص على الطريقة القديمة ، وكان الصوفية يزدرونهم ويشنّعون عليهم بأنهم حشوية (مشبّهة) ولم يكن أولئك المتمسكون بالنصوص يعترفون بالدرجة الرفيعة عند الله إلا للأنبياء ، أما المعتزلة فكانوا ينكرون بالكلية أن يختص بعض المسلمين بالولاية دون البعض ، ويرون أن جميع المسلمين الذين يطيعون الله ويقومون بأحكام الدين هم أولياء الله . وقد نشر جماعة الصوفية القول بالولاية حتى صار المتأخرون لا يعرفون إلا أولياء الصوفية ، ثم ألحقوا بهم الأولياء الأقدمين مثل معروف الكرخى و بشر الحافى . وقد جُعل على

= الأبدال (طبقات السبكى ج ٢ ص ٢٣٧) . وقيل فى حق أحد علماء الأندلس فى القرن الرابع الهجرى : « وإن كان أحد فى عصره من الأبدال فيوشك أن يكون هو منهم » (ابن بشكوال ج ١ ص ٩٢) .

(١) الجمهرة لابن دريد .

(٢) كشف المحجوب ص ٢١٤ ، ٢٢٨ .

(٣) نفس المصدر ص ٢٢٩ من الترجمة ، ٢٨٩ — ٢٩٠ من النص الفارسى .

(٤) رسائل الخوارزمى طبعة القسطنطينية ص ٤٩ .

(٥) كشف المحجوب ص ٣١٣ ، ٣١٤ .

رأس هؤلاء الصوفية الحسن البصرى[1] ، وهو الرجل الذى كان يستبشع مظهر الصوفية ، فيحكى أنه تكلم عن كساء الصوف الذى كان يرتديه الصوفية ، والذى ادعى عليه البعض أنه لبسه بعبارة قاسية ؛ فقد رأى على مالك بن دينار كساء صوف فقال له : يعجبك هذا الطيلسان ؟ قال : نعم ؛ قال : إنه كان على شاة قبلك[2] . وقد اختص القرنان الأولان فى حياة التصوف بوجود كثير من الصالحين الذين اجتمع لهم شرطا الولاية وهما أن يكون الولىّ مجاب الدعوة ، وأن تقع على يديه الكرامات[3] . وأولئك هم أولياء الإسلام القدماء الذين تؤثر أخبارهم فى جملة المأثورات القيّمة ؛ فالقزوينى مثلا لم يذكر فى كلامه عن بغداد فيما عدا بشرا الحافى إلا الأولياء الذين عاشوا حوالى عام ٣٠٠ هـ — ٩١٢ م[4] . وكان كتاب طبقات الصوفية للسلمى المتوفى عام ٤١٢ هـ — ١٠٢٤ م أول كتاب فى تراجم الأولياء ، ويُشْعِر ما قاله أبو المحاسن الذى قرأ هذا الكتاب[5] بأن ظهور الأولياء إنما كان منذ القرن الثالث فما بعده ، وأنهم كثروا فى القرن الرابع[6] .

وكرامات الأولياء كثيرة متنوعة « وقد تكون إجابة دعوة ، وقد تكون إظهار طعام فى أوان فاقة من غير سبب ظاهر ، أو حصول ماء فى زمان عطش ، أو تسهيل قطع مسافة فى مدة قريبة ، أو تخليص من عدو ، أو سماع خطاب من

---

(١) روضة الناظرين ص ٥ .

(٢) لب اللباب (الآداب) فى رد جوابات ذوى الألباب مخطوط برلين رقم ٨٣١٧ Ahlw ص ٩٥ ا .

(٣) وكذلك تستعمل كلمة كرامات استعمالا غير دينى أيضاً ؛ فمن ذلك ما جاء فى رسائل الصابى (مخطوط ليدن ص ٢٢٨ ا) : ذلك ما أملى له ورفعنى إليه مولانا من تقليد ديوان الرسائل بحضرته وملازمة مجلسه وتوفيته إياى ضروب الكرامات بالخلَع التامة والحُملان الرابع بالمركب المذهب .... الخ » .

(٤) عجائب المخلوقات طبعة فستنفلد ص ٢١٥ وما بعدها .

(٥) أبو المحاسن ج ٢ ص ٢١٨ .

(٦) قانون الإرشاد لدعوت ج ١ ص ٢٠٢ .

هاتف ، أو غير ذلك من فنون الأفعال الناقضة للعادة »[١] ، ومنها أيضاً الأعاجيب التى تظهر عليهم عند موتهم . ويحكى أنه وجد مكتوباً على جبهة ذى النون المصرى بعد موته : « هـذا حبيب الله ، مات فى حب الله ، قتيل الله » وعند ما سارت جنازته تجمعت طيور السماء فوقها وألقت أجنحتها على الجنازة لتظلّلها[٢] . ولما مات أبو محمد البربهارى فى عام ٣٢٩ هـ — ٩٤١ م مستتراً من السلطان عند أخت توزون — لأنه كان يحارب أهل البدع فغيّروا قلب السلطان عليه — بحثت عمن يغسله ويصلى عليه ؛ فجاء رجل وغسله وصلى عليه وحده ؛ وكانت أخت توزون قد أغلقت الأبواب حتى لا يعلم أحـد بذلك ، فاطّلعت فإذا الدار ممتلئة رجالا بثياب بيض وخضر[٣] . وكذلك أمر أحمد بن طولون بأن يُطرح بُنانٌ الصوفى المعروف بالحمّال المتوفى عام ٣١٦ هـ ٩٢٨ م بين يدى سبع فطُرح ، وبقى ليلته مع السبع ، فكان السبع يشمه ولا يضره ؛ فلما جاء الصباح وجدوه قاعداً مستقبلا القبلة ، والسبع بين يديه ؛ فأطلقه ابن طولون واعتذر إليه[٤] . وقد سُمّى الشيخ أبو الخير العابد الأقطع الشامى صاحب الكرامات المتوفى عام ٣٤١ هـ بالبُنانى ؛ وربما كان ذلك لأنه كان من كراماته أن الوحوش تأنس به[٥] . وفى سنة ٢٦٢ هـ توفى عبد الله المروزى ، أحد الأبدال ، وكان يقيم بقزوين ، وكان يمشى على الماء ، ويقف له بحر جيحون[٦] . ويحكى عن أحد الصوفية أنه كان يتناول الجواهر من الهواء ؛ وعن رجل أسود فقير يأوى إلى الخرابات أنه أشار بيده إلى الأرض ، فإذا الأرض كلها ذهبٌ تلمع ؛ وجاءه رجل يحمل إليه شيئاً فهاله الأمر وهرب ؛

(١) القشيرى ص ١٦٠ .
(٢) كشف المحجوب ترجمة نيكلسون ص ١٠٠ وص ١٢٥ من الأصل القلوسى .
(٣) المنتظم لابن الجوزى ص ٦٨ ب من مخطوط برلين .
(٤) المنتظم لابن الجوزى ص ٣٥ ب ؛ وأبو المحاسن ج ٢ ص ٢٣٢ .
(٥) أبو المحاسن ج ٢ ص ٣٢٥ .
(٦) نفس المصدر ج ٢ ص ٣٢ .

وعن آخر أن حماره كلّمه ، وعن بعضهم أن حماره نفق فى بعض الطريق ، فصلى ودعا الله أن يبعثه ، فقام الحمار ينفض أذنيه ، وعن رجل منهم أنه وقع فص له فى دجلة فدعا بدعاء مجرّب عنده ، فوجد الفص فى أوراق كان يتصفحها ، وعن غيره أنه أوى إلى مسجد من المطر ، وكان سقفه يَكِف فأراد إصلاح السقف بخشبة كانت معه ، وكانت قصيرة فطالت حتى ركبت الحائط ؛ ويحكى عن صوفى أنه لما مات ضحك على المُغْتَسل ، فلم يجسر أحد على غسله ، وقالوا إنه حى حتى جاء واحد من أقرانه وغسله ؛ ورُوى عن آخر أنه انكسرت به السفينة ، وبقى هو وامرأته على لوح ، وولدت امرأته فى تلك الحال صبيّةً ، فصاحت به وقالت له : يقتلنى العطش ؛ فقال : هو ذا يرى حالنا ؛ فرفع رأسه ، فإذا رجلٌ فى الهواء جالس ، وفى يده سلسلة من ذهب ، وفيها كوزٌ من ياقوت أحمر ، وقال : ها كما ، اشربا ، فشربا منه شيئاً أطيب من المسك ، وأبرد من الثلج ، وأحلى من العسل ؛ فقال الرجل لصاحب الكوز : من أنت رحمك الله ؟ فقال له : عبدٌ لمولاك ، فقال له : بم وصلت إلى هذا ؟ فقال : تركت هواى لمرضاته فأجلسنى فى الهواء ، ويحكى عن شاب كان يكثر الصلاة عند الكعبة أنه سقطت عليه رقعةٌ مكتوب فيها : من العزيز الغفور إلى عبدى الصادق ، انصرف مغفوراً لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، وكان قد سئل هذا الشاب من قبل فى كثرة صلاته ، فقال إنه ينتظر الإذن من ربه فى الانصراف .

ويُذكر عن رجل أنه كان يتعبّد فى غرفة ليس إليها سلم ولا درج ، فكان إذا أراد أن يتطهر يجىء إلى باب الغرفة ، ويقول : لا حول ولا قوة إلا بالله ، ويمرّ فى الهواء كأنه طيرٌ ، ثم يتطهّر ، فإذا فرغ يقول : لا حول ولا قوة إلا بالله ، ويعود إلى غرفته ؛ ويُروى عن آخر أنه دخل الأتون وهو موقد وخرج من الآ[illegible] . . ، على نحو ما يحكى عن سيدنا إبراهيم عليه السلام

أحدهم أنه تزوج امرأة ، فلما كان ليلة الدخول بها وقعت عليه ندامةٌ ؛ فلما أراد الدنوّ منها زُجر عنها ، فخرج ، فبعد ثلاثة أيام ظهر لها زوج ؛ وعن ذى النون المصرى أنه أراد أن يبين طاعة الأشياء للأولياء ، فأمر السرير أن يدور فى أربع زوايا البيت ، فدار ، ثم رجع إلى مكانه ؛ وعن الفُضَيل أنه كان على جبل من جبال منى فقال : لو أن وليا من أولياء الله تعالى أمر هذا الجبل أن يميد لماد ، فتحرك الجبل ؛ فقال له : أسكن ، لم أُردْك بهذا ؛ فسكن الجبل ، ويُحكى عن السرىّ السقطى أن الدنيا كانت تأتى له على هيئة عجوز فتكنس بيته ، وتحمل إليه فى كل يوم رغيفين ؟ وعن بعضهم أنه ماتَ وهو فى مركب فَجُهِّز ، وأريد إلقاؤه فى البحر ، فخفّ البحر ، ونزلت السفينة ، فحفروا له القبر ودفنوه ، فلما فرغوا استوى الماء وارتفع المركب ؛ وكثيراً ما يذكر أن الخضر يظهر للأولياء ، ولا يزال الخضر إلى اليوم موئل الفراويش[1] .

ويحكى ابن حزم[2] عن بعض نوكَى الصوفية أنهم « زعموا أن الخضر و إلياس عليهما السلام حيّان إلى اليوم ، وادعى بعضهم أنه يلقى إلياس فى الفلوات ؛ والخضر فى المروج والرياض ، وأنه متى ذُكر حضر على ذاكره » . وقد تظهر كرامات الولى بعد فوات عصره ؛ فيحكى القشيرى مثلا أن مما شاهده من أحوال أبى على الدقّاق أنه كان به علة حرقة البول ؛ وكان يقوم فى الساعة غير مرة ، وربما كان يجدّد لركعتى فرض أكثر من مرة ؛ ولكنه كان إذا قعد على رأس الكرسى يتكلم لا يحتاج إلى الطهارة ولو امتدّ به المجلس زماناً طويلا ، ثم يقول القشيرى : « ولم يقع لنا فى حياته أن هذا شىء ناقض لعادته ، وإنما وَقَع لى هذا وفُتح علىّ علمُه بعد وفاته » ؛ وذلك لأن أحوال الولى تكون مستورة[3] .

---

(١) انظر باب الكرامات فى رسالة القشيرى . (المترجم)

(٢) الفصل ج ٤ ص ١٨٠ .

(٣) القشيرى ص ١٧٢ .

على أننا لا نجد أنه قد وقع على أيدى المسلمين فى ذلك العهد ما كان يقع على أيدى أصحاب الخوارق النصارى من إحياء الموتى[١] ؛ أما المسلمون فلم يصلوا إلا إلى قيام الحيوانات بعد موتها على أيديهم[٢] . ولم يكن يتعلق بالخوارق والكرامات إلا عوامُّ الصوفية ؛ أما الخاصة الكاملون فكانوا لا يجعلون لها شأناً بالنسبة إلى الأمور النفسية . فيُحكى أنه قيل لأبى محمد عبد الله بن محمد المرتعش المتوفى عام ٣٢٨ هـ — ٩٤٠ م إن فلاناً يمشى على الماء فقال : « عندى أن من مكنّه الله تعالى من مخالفة هواه فهو أعظم من المشى فى الهواء »[٣] . وحُكى عن بعض الصوفية أنه قال : كان فى نفسى شىء من هذه الكرامات ، فأخذت قصبة من الصبيان وقمت بين زورقين ، ثم قلت : وعزتك لئن لم تخرج لى سمكة فيها ثلاثة أرطال لأغرقنّ نفسى ، قال : فخرجت لى سمكة فيها ثلاثة أرطال ، فبلغ ذلك الجنيد فقال : كان حكمه أن تخرج له أعمى تلدغه[٤] . ويحكى عن أبى يزيد البسطامى المتوفى عام ٢٦١ هـ — ٨٧٤ م أنه قيل له : فلان يمشى فى ليلة إلى مكة ، فقال : الشيطان يمشى فى ساعة من المشرق إلى المغرب فى لعنة الله ؛ وقيل له : فلان يمشى على الماء ، ويطير فى الهواء ، فقال : الطير يطير فى الهواء والسمك يمرّ على الماء ؛ وكان أبو سهل التسترى (المتوفى عام ٢٧٣ هـ أو ٢٨٣ هـ — ٨٨٦ م أو ٨٩٦ م) لا يعتدّ بإظهار الكرامات ، فكان جزاؤه أن أضيفت إليه كرامات . ويحكى عنه أنه قال : أكبر الكرامات أن تبدّل خلقاً مذموماً من أخلاقك[٥] . وجاء رجل إلى سهل ، وقال له : إن الناس

---

(١) انظر مثلا Michael Syrus, s. 560 ff .
(٢) القشيرى ص ٧٤ .
(٣) نفس المصدر ص ٢٦ .
(٤) نفس المصدر ص ١٦٣ .
(٥) نفس المصدر ص ١٦٣ .

يقولون إنك تمشي على الماء ؟ فقال : سل مؤذن المحلة ، فإنه رجل صالح لا يكذب قال : فسألته ، فقال المؤذن : لا أدرى هذا ، ولكنه نزل الحوض فى بعض الأيام ليتطهر فوقع فى الماء ، فلو لم أكن أنا لبقى فيه ؛ يقول القشيرى : « قال الأستاذ أبو على الدقاق إن سهلا كان بتلك الحالة التى وصف ، ولكنّ الله تعالى يريد أن يستر أولياءه ، فأجرى ما وقع من حديث المؤذن والحوض ستراً لحال سهل ، وكان سهل صاحب الكرامات »[1] ، وقد ذهب بعض العلماء الذين هم أئمة وحجة عند الصوفية إلى أن المعجزات دلالات صدق الأنبياء ، ودليل النبوة لا يوجد مع غير النبى ؛ وإلى أن الأولياء لهم كرامات شبه إجابة الدعوة ؛ فأما جنس ما هو معجزة للأنبياء فلا . وذهب بعضهم إلى أن المعجزات دلالات الصدق لصاحبها ، فإن ادعى النبوة دلت على صدقه فى مقالته ، وإن أشار إلى الولاية دلت المعجزة على صدقه فى حاله ، فتسمى كرامة ، ولا تسمى معجزة ، وإن كانت من جنس المعجزات بالفرق ، وكان يقول : « من الفرق بين المعجزات والكرامات أن الأنبياء عليهم السلام مأمورون بإظهارها ، والولى يجب عليه سترها وإخفاؤها ؛ والنبى صلى الله عليه وسلم يدّعى ذلك ويقطع القول به ؛ والولى لا يدعيها ولا يقطع بكرامته لجواز أن يكون ذلك مكرا »[2] ، وكذلك اختلفت الآراء فى الولىّ : هل يجوز أن يعلم أنه ولىٌّ أم لا ؟ فذهب البعض إلى أنه لا يجوز ذلك ؛ « لأنه يسلبه الخوفَ ، ويوجب له الأمنَ » ؛ وذهب غيره إلى جوازه عند بعض الأولياء دون بعض[3] . ويحكى عن السرىّ السقطى شيخ التصوف أنه قال : لو أن واحداً دخل بستاناً فيه أشجار كثيرة ، وعلى كل شجرة طير يقول له بلسان فصيح :

---

(١) نفس المصدر ص ١٧٢ .

(٢) القشيرى ص ١٥٨ — ١٦٠ ، ومن الفوارق الأخرى بين النبى والولىّ أن النبى يكون معصوماً على خلاف الولى (انظر كشف المحجوب ص ٢٠) والقشيرى ص ١٦٠ .

(٣) القشيرى ص ١٥٩ .

السلام عليك يا ولىّ الله ؛ فلو لم يَخَفْ أنه مكرٌ لكان ممكورا[1] . والذى على أن تعظيم الأولياء رغم انتشاره كان إلى حد كبير شأن المتصوفة والعامة كتب العلماء والأدباء ، فلسنا نجد من علماء الجغرافية فى القرن الرابع من يتكلم عن ولىّ من الأولياء ، ولا نجد شاعراً يذكر أحداً منهم .

وأخيراً فإن المذهب الصوفى أنشأ اعتقاداً كانت له قوة كبيرة جدا من الناحية الدينية ؛ لأنه كان يشبع حاجة للتقديس موجودة قبل عهد الإسلام : فقد رفع هذا الاعتقاد محمداً إلى درجة فوق درجة الإنسان ، حتى أوشك أن يرفعه إلى درجة الألوهية . أما المسلمون الأولون فقد كانوا معتدلين مقتصدين ؛ فيُحكى عن أبى بكر رضى الله عنه أنه دخل على حبيبه وهاديه النبى صلى الله عليه وسلم وهو مسجّى ، فقبّله ؛ ثم بكى وقال : بأبى أنت وأمى يا نبىّ الله ، لا يجمع الله عليك موتتين ، أما الموتة التى كتبت عليك فقد متَّها[2] .

أما الحلاج ، فأنه — وإن كان يعظم قدر عيسى عليه السلام — يجعل فى الفصل الأول من كتاب الطواسين مايشبه أنشودة حماسية عن النبى محمد : « طس سراج من نور الغيب بدا وعاد ، وجاوز السراج وساد ، فر تجلّى من بين الأقمار ، برجه فى فلك الأسرار ، سماه الحق أمّيًا لجمع همته ، وحرميا لعظم نعمته ، ومكيا لتمكينه عند قربه ، شرح صدره ، ورفع قدره ، وأوجب أمره ، فأظهر بدره . طلع بدره من غمامة اليمامة ، وأشرقت شمسه من تحية تهامة ، وأضاء سراجه من معدن الكرامة ، ما أخبر إلا عن بصيرته ... « والذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون » . أنوار النبوة[3]

---

(١) نفس المصدر ص ١٦٠ .

(٢) صحيح البخارى باب الجنائز .

(٣) يقول ماسنيون إن هذا التعبير تعبير صوفى .

من نوره برزت ، وأنوارهم من نوره ظهرت ، همّتُه سبقت الهمم ، ووجودُه سبق العدم ، واسمه سبق القلم ، لأنه كان قبل الأمم . . . وهو سيد البريّة الذى اسمه أحمد ، ونعته أوحد ، كان مشهوراً قبل الحوادث والكوائن والأكوان ، ولم يزل مذكوراً قبل القبل و بعد البعد ، هو الذى جلا الصدأ عن الصدر المغلول ، هو الذى أتى بكلام قديم لا محدث ولا مقول ولا مفعول . . . فوقه غمامة برقت ، وتحته برقة لمعت ، وأشرقت وأمطرت وأثمرت ، العلوم كلها قطرة من بحره ، الحِكَم كلها غرفة من نهره ، الأزمان كلها ساعة من دهره ، هو الأول فى الوصلة ، هو الآخر فى النبوة ، والباطن بالحقيقة ، والظاهر بالمعرفة ، خرج عن ميم محمد وما دخل فى حاية أحد »[١] .

بهذه الأصول الثلاثة الكبرى ، وهى ما سمّى بالاستسلام ، ثم تعظيم الاولياء ، والغلو فى تعظيم النبى محمد (عليه الصلاة والسلام) رسم الصوفية فى القرنين الثالث والرابع للهجرة للحركاتِ الإسلامية الاتجاهات الكبرى التى سارت عليها والتى بقيت إلى اليوم . ولكن التصوف لم يكن يضمن للناس اليقين بالفوز بالنجاة فى الآخرة ، كما أنه لم يكن يحقق لهم تبديد ما يساورهم من المخاوف والشكوك فيما يتعلق بحسن الخاتمة ، فيحكى أن أبا طالب المكى — وكان من أكابر الزهاد المتعبدين وصاحب كتاب فى التصوف — لما حضرته الوفاة عام ٣٨٦ هـ — ٩٩٦ م قال لأحد أصحابه : إذا علمتَ أنه قد خُتم لى بخير ، فانثر علىّ سكرا ولوزا إذا خرجت جنازتى ، وقل : هذا للحاذق ! فقال صاحبه : من أين أعلم ؟ فقال : خذ بيدى وقت وفاتى ، فإذا أنا قبضت بيدى على يدك ، فاعلم أنه قد ختم الله بالخير ، و إذا أنا لم أقبض على

(١) كتاب الطواسين ص ٩ — ١٤ . وكذلك القول بالوجود السابق أصله من مذاهب الفنوسطيين . وقد أصلحت هنا بعض الآراء لتطابق النصوص التى يرجع إليها المؤلف وفيما يتعلق بسيدنا عيسى عليه السلام ، انظر ما يلى . (المترجم)

يدك وسيّبت يدك من يدى فاعلم أنه لم يُحتم لى بخير. فقعدت عنده فلما كان عند وفاته قبض على يدى قبضاً شديداً ، فلما أُخرجت جنازته نثرت عليه سكراً ولوزاً ، وقلت : هذا للحاذق ، كما أمرنى[1] . ويحكى مثل هـذا عن الإمام أبى الحسن الماوردى المتوفى عام ٤٥٠ هـ — ١٠٥٨ م ؛ فقد قيل « إنه لم يظهر شيئاً من تصانيفه فى حياته ، وجمعها فى موضع ، فلما دنت وفاته قال لمن يثق به ، الكتب التى فى المكان الفلانى كلها تصنيفى وإنما لم أظهرها لأنى لم أجد نيةً خالصة ، فإذا عاينت الموت ، ووقعت فى النزع ، فاجعل يدك فى يدى فإن قبضت عليها وعصرتها فاعلم أنه لم يقبل منى شيء منها ، فاعمد إلى الكتب وألقها فى دجلة ، وإن بسطت يدى ولم أقبض على يدك فاعلم أنها قد قبلت وأنى قد ظفرت بما كنت أرجوه من النية . قال ذلك الشخص . فلما قارب الموت وضعت يدى فى يده فبسطها ولم يقبض على يدى فعلمت أنها علامة القبول فأظهرتُ كتبه من بعده وعليها خطه »[2] ومما يقرؤه الإنسان مع التأثر أنه فى أواخر التراجم الغريبة التى تكتب للأولياء يُذكر أن الولىّ يعرض فى المنام لأحد أصحابه أو تلاميذه وعليه ملابس تُدل على ما ناله من الرحمة الإلهية والفضل ، وأن أصحابه يسألونه متلهفين عن الشيء الذى نال به السعادة والقبول . وكان أكبر شيء يضمن للإنسان الجنة عند المسلمين هو أن يستشهد الإنسان وهو يقاتل الكافرين . وقد ظن الإمبراطور نقفور — وهو أكبر عدو للإسلام فى القرن الرابع الهجرى — لقيمة هـذه المسألة من الناحية الحربية ؛ فأراد أن يعلن أن كل من يموتون فى الحرب مع المسلمين ، فهم شهداء ، ولكن الكنيسة كانت ساخطة على نقفور لأسباب مالية فلم تُجبه إلى ذلك[3] .

---

(١) المنتظم لابن الجوزى ص ١٣٩ ب .

(٢) طبقات السبكى ج ٣ ص ٢٠٣ — ٢٠٤ .

(٣) Krumbacher, Geschichte der byz Literature, 2, s 985 .

على أن حركة التصوف قد خرجت كثيراً فى بعض صورها الأخرى عن حدود المبادئ الإسلامية ، وهذا هو الذى يجعلها فرعاً غير أوروبى له مميزاته الشرقية الخاصة ، فلم يكتف المتصوفون بأن يجعلوا للإحساسات صبغة إلهية ، بل هم أرادوا فوق ذلك أن يجعلوا للإرادة الإنسانية هذه الصبغة ، وأن يدّعوا لهذه الإرادة الإلهية فى زعمهم — بناء على ذلك — القدرةَ الإلهية على كل شىء ، وبهذه المذاهب عرّضوا هدوء الدولة وسكينتها لأكبر الأخطار ، وازدادت فائمة الزنادقة حوالى عام ٣٠٠ هـ — ٩١٢ م زيادة كبيرة ملحوظة .

فى عام ٣٠٩ هـ — ٣٢١ م قُتل الحسين بن منصور الحلاج قتلةً شنيعة ، فضُرب ألف سوط ، وقطعت يداه ورجلاه ، وأحرق بالنار[١] . ويقول البيرونى[٢] إنه رجل متصوف من أهل فارس ؛ ويقول صاحب الفهرست إنه كان يظهر مذاهب الشيعة للملوك ومذاهب الصوفية للعامة[٣] . ويحكى أنه كان يصلى فى كل يوم أربعمائة ركعة[٤] . ويذكر ابن النديم بعد وفاة الحلاج بست وستين سنة سبعة وأربعين من مصنفاته[٥] ، وقد نشر الأستاذ ما سينيون أحد هذه الكتب وعلّق عليه ، وقد استطاع الحلاج أن يعبّر عن النكت الدقيقة فى

(١) انظر آخر ما كتب عن الحلاج عند Schreiner, ZDMG, 52, s. 468 ff ؛ وهريب القرطبى طبعة دى غوى ص ٨٦ وما بعدها ؛ وأهم ما يرجع إليه كتابه الطواسين للحلاج (طبعة باريس ١٩١٣) ، ومقالة أنا الحق فى مجلة Der Islam, III, 248 ff. .

(٢) الآثار الباقية ص ٢١١ .

(٣) كتاب الفهرست ص ١٩٠ .

(٤) كشف المحجوب ترجمة نيكلسون ص ٣٠٣ .

(٥) كتاب الفهرست ص ١٩٢ وما ذكره الأستاذ ماسينيون فى كتاب الطواسين ؛ ويقول البيرونى فى الآثار الباقية (ص ٢١٢) إن الحلاج صنف كتباً فى دعواه مثل كتاب نور الأصل وكتاب جم الأصغر وكتاب جم الأكبر . ويذكر السبكى فى الطبقات (ج ٣ ص ٦١) أنه كان بين كتب عبد الرحمن السلمى (مؤرخ الصوفية المتوفى عام ٤١٢ هـ — ١٠٢١ م) كتاب للحلاج يسمى الصيهور فى نقص الدهور ، وكان هذا الكتاب « مجلدة صغيرة مربعة فيها أشعاره » .

تفكيره ، وعما كان فى مذهبه من نزعة قوية إلى القول بوحدة الوجود تعبيراً أدبياً يتجلى فيه الحذق والمهارة المدهشة ؛ ولم تكن هذه القدرة بنت أمسها ، بل هى تنم عن نسبها وصلتها بمذاهب الغنوسطيين ؛ وتذكرنا أيضاً فى كثير من الأحيان بأجمل القطع فى أناشيد الغنوسطيين ؛ أما طريقة الحلاج فهى من كل وجوهها طريقة المعتزلة ، فقد أخذ عنهم فكرة تنزيه الذات الإلهية عن جميع الصفات الإنسانية وجميع الأوصاف المتغيرة — كما أخذ عنهم تسمية الذات الإلهية باسم الحق — وتلك الفكرة هى آخر ما يصل إليه الإنسان بطريق التنزيه . ولكننا إذا وجدنا الحلاج يميز بين اللاهوت والناسوت فى الذات الإلهية — وهما كلمتان غريبتان عن الإسلام يرجع أصلهما إلى النزاع الذى قام بين النصارى فى الشام حول طبيعة المسيح — ؛ وإذا وجدنا عنده القول بأن الله سيحكم بين الناس يوم القيامة بصورة الناسوتية[1] . وأنه ظهر قبل إيجاده للخلق أولا فى صورة الإنسان[2] وهذا يشبه الإنسان القديم (المسمى عند اليونان proön anthrôpos فى مذهب الغنوسطيين انظر مثلا Hilgenfeld, Ketzergeschichte, 294 ، ثم إذا وجدنا أنه يقول إن الله بدا لخلقه ظاهراً فى صورة الآكل والشارب حتى يعاينه خلقه « كلحظة الحاجب بالحاجب »[3] فإننا نجد أنفسنا وسط ذلك العالم الغريب الذى كان للغنوسطيين المسيحيين وهو الذى كان من ناحيته مجرد صورة مطموسة للأساطير القديمة . ونستطيع أن نلاحظ صلة النسب والشبه بين ما ذهب إليه

---

(١) كتاب الطواسين ص ١٣١ .

(٢) نفس المصدر ص ١٣٠ .

(٣) قال الحلاج (الطواسين ص ١٣٠) :

سبحان من أظهر ناسوته ... سرّ سنا لاهوته الثاقب
ثم بدا فى خلقه ظاهراً ... فى صورة الآكل والشارب
حتى لقد عاينه خلقه ... كلحظة الحاجب بالحاجب

الحلاج وبين مذهب الغنوسطيين حتى فى التفاصيل . فمثلا يقول باسيليدس Basilides des Irenaeus إن الأب تصدر عنه الكلمة logos ثم الحكمة Phronesis ثم القدرة Dynamis ثم العلم Sophia[1] وكذلك نجد الحلاج يتكلم فى طاسين المشيئة عن أربع دوائر : الأولى مشيئته ، والثانية حكمته ، والثالثة قدرته ، والرابعة معلوماته وأزليته[2] . فطريقة التمثيل بالدوائر هى التى وجدها Celsus عند الغنوسطيين ، نجدها أيضاً عند الحلاج فى كتابه الوحيد الذى نعرفه إلى اليوم ، ونجدها أيضاً فى مصنفات الدروز كما هو معلوم جيداً ، ويمثل العقل عند الغنوسطيين بالشكل المثلث[3] ، وفى كتاب الطواسين يمثل الفهم بالمستطيل (ص ٣١) . ولما كُبست دار أحد أصحاب الحلاج وجدت فيها دفاتر كثيرة مكتوبة على ورق صينى ، وبعضها مكتوبة بماء الذهب ومبطنة بالديباج والحرير ومجلدة بالأدم الجيد[4] . وكانت هذه أيضاً من عادات الغنوسطيين فى العناية بكتبهم . وكان المانية أيضاً يزينون كتبهم الدينية بالذهب والفضة[5] . وكذلك نجد ما كان عند الغنوسطيين من تنسك الناس وتطهرهم مجتمعين ، ومن بيان مراتب التصفية من الطبيعة البشرية ، ويصرح الحلاج بأن عيسى (عليه السلام) هو المثل الأعلى الذى ينتهى إليه الإنسان بالتصفية . وقد بيّن الأصطخرى[6] أحد معاصرى الحلاج المتأخرين مذهبه بقوله : « الحسين بن منصور المعروف بالحلاج من أهل البيضاء ؛ وكان رجلا محلاجاً ينتحل النسك ؛ فما

---

(١) Hilgenfeld, s. 199 .

(٢) كتاب الطواسين ص ٥٦ .

(٣) Hilgenfeld, s. 278 .

(٤) غريب ص ٩٠ نقلا عن مسكويه .

(٥) المنتظم لابن الجوزى ص ٢٢ب .

(٦) ص ١٤٨ — ١٤٩ .

زال يرتقى به طبقا عن طبق حتى انتهى به الحال إلى أن زعم أن من هذّب فى الطاعة نفسه ، وأشغل بالأعمال الصالحة قلبه ، وصبر على مفارقة اللذات ، وملك نفسه فى منع الشهوات ، ارتقى به إلى مقام المقربين ، ثم لا يزال يتنزّل فى درج المصافاة حتى يصفو عن البشرية طبعه ، فإذا لم يبق فيه من البشرية نصيب حل فيه روح الله الذى كان منه عيسى ابن مريم ، فيصير مطاعاً فلا يريد شيئاً إلا كان من كل ما ينفذ فيه أمر الله ، وأن جميع فعله حينئذ فعل الله ، وجميع أمره أمر الله » .

ويقول الحلاج نفسه :

مُزجت روحُك فى روحى كما تُمزج الخمرةُ بالماء الزُّلال
فإذا مسّك شىء مسّنى فإذا أنت أنا فى كل حال[1]

ويقول :

أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حَلَلْنا بدنا
فإذا أبصرتنى أبصرته وإذا أبصرته أبصرتنا[2]

وقد مثّل الوصول إلى الحقيقة تمثيلا جميلا فريدا ؛ فهو يقول فى طاسين الفهم[3] : « أفهام الخلائق لا تتعلق بالحقيقة ، والحقيقة لا تتعلق بالخليقة ؛ الخواطر علائق ، وعلائق الخلائق لا تصل إلى الحقائق ؛ والإدراك إلى علم الحقيقة صعب ، فكيف إلى حقيقة الحقيقة ؛ الحق وراء الحقيقة ، والحقيقة دون الحق ؛ الفراش يطير حول المصباح إلى الصباح ، ويعود إلى الأشكال ، فيخبرهم عن الحال بألطف المقال ، ثم يمرح بالدلال طمعا فى الوصول إلى الكمال ، صورة المصباح علم الحقيقة ،

---

(١) كتاب الطواسين ص ١٣٤ .

(٢) نفس المصدر ص ١٣٤ ، ومن العجيب أننا لا نجد هذه الصورة فى كتاب الطواسين ، ولابد أن يكون مذهب الحلاج قد نشأ أطواراً فى أوقات متباينة .

(٣) كتاب الطواسين ص ١٦ — ١٧ .

وحرارته حقيقة الحقيقة ، والوصول إليه حق الحقيقة ؛ لم يرض بصوته وحرارته فيلقى جلته فيه ؛ والأشكال ينتظرون قدومه فيحذرهم عن النظر حين لم يرض بالخبر ، فحينئذ يصير متلاشيا متصاغراً متطائراً فيبقى بلا رسم وجسم واسم ووسم ، فلأى معنى يعود إلى الأشكال ، وبأى حال بعد ما حاز ! صار من وصل إلى النظر استغنى عن الخبر ، ومن وصل إلى المنظور استغنى عن النظر » .

ويقول[1] :

أنت بين الشغاف والقلب تجرى ... مثلَ جرى الدموع من أجفانى
وتحل الضمير جوف فؤادى ... كحلول الأرواح فى الأبدان

على أن الصولى فى كلامه عن الحلاج مراراً يقول إنه رجل جاهل يتعاقل ؛ ولكن الأصطخرى يقول إنه استمال جماعة من الوزراء وطبقات من حاشية السلطان وأمراء الأمصار وملوك العراق والجزيرة وما والاها[2] . وقد اتهم نصرٌ الحاجب بوجه خاص ومع عظم شأنه بالميل إليه ، وكذلك استحضر الوزير بعض القضاة والفقهاء واستفتاهم فى أمره فذكروا أنهم لا يُفتون بقتله ، ومكث الحلاج محبوساً فى دار الخلافة ثمانيه أعوام موسّعاً عليه . وتشعرنا أخباره بأن الدسائس هى التى كانت سببا فى قتله . وأغلب ما انتهى إلينا من أخبار الحلاج إنما ذكره خصومه ، ويؤخذ من هذه الأخبار بوضوح أن الحلاج قد أثر فى كبراء أهل بغداد تأثيرا

---

(١) نفس المصدر ص ١٣٣ . وقد ذكر عريب القرطبى (ص ٩٨) أبياتاً للحلاج .

كل بلاء علىّ منّى ... فليتنى قد أخذت عنى
أردت منى اختبار سرّى ... وقد علمتَ المراد منى
وليس لى فى سواك حظ ... فكيفما شئتَ فاختبرنى

(٢) الأصطخرى ص ١٣٩ ؛ ويقول ابن حوقل إنه كان فى أول أمره داعياً من دعاة الفاطميين ويقول صاحب الفهرست (ص ١٩٠) إنه كان فى أول أمره يدعو إلى الرضا من آل محمد (المترجم) .

قويا نادر المثال ، ويدل على عظم شأنه أن كلاً من الذهبي وابن الجوزى كتب عنه كتابا خاصا ؛ ولكن يظهر أن هذين الكتابين قد فقدا مع الأسف ، ولم ينل هذا الشرف — أعنى تخصيص كتاب فى حياة رجل — إلا القليلون بين رجال الإسلام .

وقد أثر الحلاج فى علوم الدين عند المتصوفة أثرا كبيرا ؛ ورغم قتله فإن كثيرين من تلاميذه حملوا مذهبه من بعده ، وخصوصا فرقة السالمية . ويحدثنا الهجويرى فى القرن الخامس الهجرى أنه رأى بالعراق أربعة آلاف يسمون أنفسهم الحلاجية[1] . ويصرح الهجويرى نفسه بعطفه على الحلاج ويقول إنه لم ينكر فضله وصفاء حاله وكثرة اجتهاده ورياضته إلا فئة قليلة من مشايخ الصوفية[2] ؛ وكان لا يزال فى عصر أبى العلاء المتوفى عام ٤٤٩ هـ — ١٠٥٧ م قوم فى بغداد ينتظرون خروجه ، ويقفون بحيث صُلب على دجلة يتوقعون ظهوره[3] .

وكانت المذاهب المسيحية أيضا هى الأصل التى نشأت منه جميع الآراء الأخرى التى جاء بها زنادقة ذلك العصر ؛ فمثلا ذهب منصور العجلى الملقب بالكِسف — لأنه كان يزعم أنه المقصود بقوله تعالى وإنْ يَرَوْا كِسفًا من السماء ساقطا — إلى أن أول من خلق الله عيسى ابن مريم (عليهما السلام) ثم خلق بعده عليا[4] . وكذلك ادعى الشلمغانى المعروف بابن أبى العزاقر ، وهو من قرية من قرى واسط ، أن روح الله حل فيه[5] . وقد تقدَّم أمير المؤمنين عام ٣٢٢ هـ إلى

(١) كشف المحجوب ترجمة نيكلسون ص ٢٦٠ .
(٢) نفس المصدر ص ١٥٠ وما بعدها .
(٣) رسالة الغفران فى مجلة الجمعية الآسيوية الملكية JRAS, 1902, S. 833 .
(٤) الفصل ج ٤ ص ١٨٥ .
(٥) الإرشاد لياقوت ج ١ ص ٢٩٦ ، ٢٩٧ . وقد ذكر شرينر (Schreiner) المراجع فى ذلك (ص ٤٧٢) . ولم يذكر ابن حوقل شيئاً . وأول من ذكرها ياقوت فى كتابه المسمى إرشاد الأريب (ج ١ ص ٢٩٦) ويقول ياقوت إنه قرأ بمدينة مرو رسالة كتبت ببغداد عن =

الوزير أبي على بن مُقْلة ليكشف أمر الشلمغانى وأمر صاحبيه ، فتجرد لذلك وحقق أمرهم وطلب من الرجلين التبرؤ من ابن أبى العزاقر ونَيْلَه بمهانة يَحْقُر بها قدره ، فأما أحدهما فصفعه مرة ، وأما الآخر فإنه أرعد وأظهر خوفا من ذلك واستعصى إلى أن لم يجد محيصا ، فمدّ يده إلى لحيته على سبيل توقير وتكريم وقال معلنا غير مخافت : مولاى مولاى ؟ فجُلدا وقُتلا وصلبا ، وأحرقت أجسامهما . وكان الشلمغانى يقول إن الله يحل فى كل شىء على قدر ما يحتمل ، وإنه خلق الضد ليدل به على مضدوده ، فآدم وإبليس كلاهما يدل على صاحبه لمضادته إياه فى معناه ، والدليل على الحق أفضل من الحق ، والضد أقرب إلى الشىء من شبيهه ، وكان يقول إن اللاهوتية اجتمعت فى آدم وإبليس ، وكذلك فى إبراهيم وإبليسه نمرود ، وفى هارون وإبليسه فرعون ،وفى داود وإبليسه جالوت ، وكذلك فى عيسى وإبليسه ، ثم فى تلاميذه كلهم ، وكان المسعودى يعد الشلمغانى من الشيعة[1] ، على أن هذا الرجل وإن كان يقول إن اللاهوتية اجتمعت فى علىّ وإبليسه قبل أن تجتمع فى شخصه هو ، فهو لا ينسب الحسن والحسين رضى الله عنهما إلى على رضى الله عنه ، وكان يقول : « من اجتمعت له اللاهوتية لم يكن له والد ولا ولد» . وكان الشلمغانى يقول إنه قبل اجتماع اللاهوتية فى على وإبليسه اجتمعت فى عيسى وإبليسه ثم فى تلاميذه كلهم . أما موسى ومحمد عليهما السلام فيسمون عند الشلمغانية الخائنين ، لأنهم يدعون أن هارون أرسل موسى وعليا أرسل محمدا فخاناهما ، وزعم الشلمغانى أن عليا رضى الله عنــه أعطى محمدا عليه السلام مهلة قدرها المدة التى لبثها أهل الــكهف فى كهفهم ؛ وبعدها تبطل الشريعة المحمدية ، وفى عصر الشلمغانى كانت

= أمير المؤمنين الراضى إلى أبى الحسين نصر بن أحمد الساماني بقتل العزاقرى وقد ذكر ياقوت قطعة من هذا الخطاب .

(١) التنبيه للمسعودى ص ٣٩٦ — ٣٩٧ .

هذه المدة قد قاربت نهايتها ، وكذلك أوّل الشلمغانية القرآن عن معانيه الظاهر فقالوا إن معنى الجنة معرفتهم وانتحال مذهبهم ، ومعنى النار الجهل بهم والصدو عن مذهبهم ، وكانوا يغتفرون ترك الصلاة والصيام والاغتسال ؛ وكانوا لا يتناكحون على السنة بل يبيحون الفروج ، ولا ينكرون أن يطلب أحدهم من صاحبه حرمته . وكانوا يرون أنه لابد للفاضل منهم أن ينكح المفضول ليولج النور فيه[١] . على أن هذه الفرقة لم تكن فرقة عوام ؛ فقد كان ابن أبي العزاقر نفسه كاتبا ببغداد ، وكان المحسّن بن الفرات له عناية به ، فاستخلفه ببغداد لجماعة من العمال ، وكذلك كان صاحبه إبراهيم بن أبي عون شاعرا وصاحب تآليف كثيرة ومشتغلا بالأدب وكان من القواد[٢] . ويقال إن الوزير الحسين بن القاسم بن عبيد الله أحد وزراء أسرة بني وهب المشهورة كان يعتقد أن أبا العزاقر إله[٣] .

أما الحركات التي منشؤها القول بظهور المهدي فكانت من نوع آخر يخالف ما تقدم كل المخالفة ، فالأشخاص الذين تكلمنا عنهم حتى الآن هم قوم كل منهم على حدته يبحث عن الله ، وقد ساروا في طريقهم على هدى علوم الدين القديمة ، وأعجب ما في أمرهم أنهم — رغم غرابة مذاهبهم — وجدوا من يصدقهم . أما الحركات المتعلقة بالمهدي فكانت منذ أول أمرها حركات سياسية تخاطب الجماهير ، فكان لها نتائج أخرى . فحوالي منتصف القرن الثالث الهجري ظهر حمدان قرمط[٤] ، والتفت عليه العناصر الثائرة في العراق ؛ ولكن الخليفة المعتضد

---

(١) الإرشاد لياقوت ج ١ ص ٢٩٦ — ٣٠٧ . ويقول الهجويري (كشف المحجوب ص ٤١٦) إن الحلولية جعلوا حكايات الغلمان وصحة ألحقوها بأولياء الله وبالمتصوفين .

(٢) الإرشاد ١٠ ص ٢٩٦ .

(٣) كتاب العيون ص ١٨٥ ب .

(٤) يظهر لي أن أصح ما قيل في بيان الأصل الذي اشتق منه هذا الاسم هو ما رجحه فولرز (Vollers) من اتصال كلمة قرمط بكلمة Grammata اليونانية ومعناها الحرف ، وذلك =

أحد هذه الفتنة ، ولم يصبح لدعوة حمدان شأن سياسى إلا بعد انتقال هذه الفتنة إلى جزيرة العرب ، وكانت الجزيرة أكبر مركز يحتشد إليه الثوار على اختلاف أصنافهم حيث يكونون على قدم الاستعداد دائماً لاتباع قائد يسير بهم إلى أراضى الملاك الأغنياء يقتلون وينهبون .

وقد مات الخليفة المعتضد عام ٢٨٩ هـ — ٩٠١ م ، وهو الخليفة القدير المحنّك ، وفى نفسه حسرة من القرامطة ، فكان فى مرضه يتلهف ويتمنى أن يبلغ منهم قبل موته ما يريد[١] . وقد أتاح القدر لهم قائدين عظيمين عرفا كيف ينظمان ما فى جزيرة العرب من قوى خشنة ويقودانها فى أكبر ثورة شهدتها الجزيرة منذ أيام الإسلام الأولى ؛ فحوالى أواخر القرن الثالث الهجرى خرب القرامطة الشام تخريباً شديداً ، وفى أوائل القرن الثالث امتدت غاراتهم إلى العراق ففتحوا البصرة والكوفة ، وأعملوا فيهما النهب ، وألقوا الرعب فى بغداد ، وقطعوا الطريق بين مكة والمشرق . وفى عام ٣١٦ هـ — ٩٢٨ م شنوا غاراتهم متفرقة تقوم بها العصابات من صحراء الشام إلى جبال سنجار[٢] . وفى عام ٣١٧ هـ — ٩٢٩ م بلغ الحجاج مكة من غير أن يصيبهم أذى ، ولكن وافاهم بعد ذلك فى مكة يوم التروية أبو طاهر القرمطى فى عدد قليل يدهشنا لقلته — اذ كان معه ستمائة فارس وتسعمائة راجل — فاقتحم مكة ، ونهب هو وأصحابه أموال الحجاج ، وقتلوهم حتى فى المسجد الحرام وفى البيت نفسه ، وقلع باب البيت ، وقلع الحجر الأسود ، وأنفذه إلى هجر ، وأخذ كسوة البيت ففرقها بين أصحابه ، ونهب دور

= لأن هذا الافتراض يجد ما يؤيده فى لغة السُكدّيين بالعراق فى القرن الرابع الهجرى . وقد جاءت كلمة قرمط فى قصيدة أبى دلف فى الكدْية (يتيمة الدهر ج ٣ ص ١٨٤) بمعنى الرجل الذى يكتب التعاويذ بالدقيق والجليل من الخط .

(١) الاتعاظ للمقريزى طبعة بونتز ص ١١١ .

(٢) ابن الأثير ج ٨ ص ١٣٢ — ١٣٣ ؛ وصريب ص ١٢٤ .

أهل مكة . ولم ينهض لمقاومة هؤلاء المغيرين إلا البدو الذين

فأما أهل مكة فقد شاركوا المغيرين فى نهب بلدهم الحرام . على أن هذا الحادث لم يؤثر فى أهل ذلك العصر ما كنا ننتظر له من أثر ، ولم ينظر إليه بعين السخط الشديد إلا أهلُ الأجيال التالية . أما ذلك العصر فكان فيه كثيرون لا يعنيهم أمر الدين ، ومن جهة أخرى فإن المتصوفة الذين صاروا يتجمعون حول شيوخهم كانوا يرون فى ذلك شيئاً أعظم من الحجر الأسود ؛ بل يظهر أن المسلمين المتمسكين بأصول الإسلام كانوا يعظمون هذا الحجر من غير أن تطمئن قلوبهم لذلك تمام الاطمئنان . وكان هذا الحادث منتهى ماوصلت إليه فتنة القرامطة وثورتهم . وبعد ذلك أغاروا على المشرق ينهبون حتى بلغوا فارس ؛ وقد ألقوا الرعب فى الصحراء حتى أشفق الناس من اجتيازها ؛ وكثيراً ما كان أهل بغداد يغلقون أسواقهم خوفاً منهم ؛ ولكن الخليفة استطاع بسياسته أن يشل حركتهم ، فدخل جنود القرامطة فى خدمة الخلفاء . وفى سنة ٣٢٧ هـ — ٩٣٨ م كاتب أبو على عمر بن يحيى العلوى القرامطة . وكانوا يخشونه لشجاعته وكرمه وسألهم أن يؤمّنوا الحاجّ ويعطيهم عن كل حمل مكساً عينه لهم ، فرضوا بذلك . وفى سنة ٣٣٩ هـ — ٩٥٠ م رد القرامطة الحجر الأسود إلى مكة ؛ وقد استطاع جمل نحيل أن يحمله ، وقد سمن بحمله له ؛ على حين أنه قبل ذلك باثنتى عشرة سنة وتحته ثلاثة جمال أقوياء . ولم ينته ما أصاب الحجر الأسود عند هذا الحد ؛ ففى عام ٤١٣ هـ — ١٠٢٢ م عمد أحد الحجاج المصريين — وفى رأى بعض المؤرخين أنه من الجهال الذين استغواهم الحاكم بأمر الله — إلى الحجر الأسود ، فضربه بدبوس كان فى يده ضربات متوالية فكسر قطعاً منه ؛ ولكن الناس عاجلوا الرجل وقتلوه ، ثم أخذت القطع التى سقطت من الحجر وعجنت

بالمسك والمَلَك وحشيت بها المواضع التى تقبت[١]. وفى سنة ٣٥٠ هـ سار القرامطة وهجموا على مصر والشام فساعدوا الفاطميين على قصد مصر، ولكن أمرهم انتهى عام ٣٥٨هـ — ٩٦٨م إلى مسالمة الخليفة العباسى ببغداد، فخطبوا له على المنابر، وأعطاهم مالا وسلاحاً[٢] . ثم أغاروا على الشام كما أغاروا عليها فى أول أمرهم ولكن كان عدوهم بها فى ذلك العهد هو حليفهم قديماً، وهم الفاطميون . وصار القرامطة يقيمون الدعوة للخليفة العباسى فى كل بلد يفتحونه، وسوّدوا أعلامهم، ورجعوا عما كانوا عليه من المخرقة ، وأظهروا أنهم كأمراء النواحى الذين من قبل الخليفة العباسى[٣] ؛ ولكنهم هُزموا فى الشام آخر الأمر ، وارتدّوا إلى جزيرة العرب ، على أن يدفعوا قدراً من المال فى كل عام ، وبعد ذلك ببضع سنين أخرجهم بنو بويه نهائيا من العراق ، ولم يبق لهم فى أواخر القرن الرابع إلا ولاية صغيرة على الشاطئ الشرقى للجزيرة العربية لا تستطيع قطع الطريق على الحجاج ؛ ولكن كان لها على باب البصرة ديوان لأخذ الضرائب[٤]. وحتى عام ٤٤٣ هـ وجد الرحالة الفارسى ناصر خسرو عند ما زار الأحساء — عاصمتهم — أنهم كانوا يقيمون على باب البيت الذى فيه قبرُ مؤسسِ مذهبهم فرساً بسرج ولجام، لا يغادر مكانه لا ليلا ولا نهاراً ؛ ويقولون إنه للمهدى يركبه متى ظهر[٥]. ويحكى أبو العلاء المعرى عمن سافر إلى اليمن أن بها فى عهده جماعة « كلهم يزعم أنه

(١) المنتظم لابن الجوزى ص ٦٠ أ ، ٨١ ب ، ١٧٠ ب — ١٧١ أ .

(٢) تاريخ أبى يعلى حمزة بن القلانسى المعروف بذيل تاريخ دمشق طبع بيروت عام ١٩٠٨ ص ١ — ٢ نقلا عن الصابى .

(٣) الاتعاظ للمقريزى ص ١٣٣ .

(٤) المقدسى ص ١٣٣ .

(٥) ناصر خسرو ص ٢٢٩ من الترجمة ؛ وحكى هنا أيضاً لأبى العلاء (انظر مجلة (Jras, 1902, s. 828.

القائم المنتظر ، فلا يعدم جباية من مال يصل بها إلى خسيس الآمال»[١] . ولن نستطيع أن نعرف إلى أى حد كان تصديق الناس لدعواهم — أو رغبة هؤلاء الناس فى التكسب بهذا التصديق — سبباً فى حصول هؤلاء المدعين على من يؤمن بدعواهم ، كما لن نستطيع معرفة مقدار الإخلاص الدينى فى تلك الحركة بجملتها . على أنه ينبغى أن نلاحظ أن اليمن كانت دائماً من الأقاليم النادرة المشهورة بالروحانية فى العالم ، وأن روحها أبعد عن الروح الأوروبية من الروح المغولية ، مثلا . يقول أبو العلاء : « وما زال اليمن ، منذ كان ، معدناً للمتكسّبين بالتدين ، والمحتالين على السحت بالتزيُّن »[٢] . على أن مذهب القرامطة المهديين ليس مذهباً إسلاميا حقا ، فقد كان وراء عقائدهم دائماً القول بالحلول ، كما كان الحال فى مذاهب الغنوسطيين المسيحيين . يقول ابن حزم : « ثم زادت فرقة على ما ذكرنا ، فقالت بإلٰهية محمد بن إسماعيل بن جعفر بن محمد ، وهم القرامطة ، وفيهم من قال بإلٰهية أبى سعيد الحسن بن بهرام الجنابى وأبنائه بعده ، ومنهم من قال بإلٰهية أبى القاسم النجار القائم باليمن فى بلاد همدان المسمى بالمنصور ، وقالت طائفة منهم بإلٰهية عبيد الله ثم الولاة من ولده إلى يومنا هذا ، وقالت طائفة منهم بإلٰهية أبى الخطاب محمد بن أبى زينب مولى بنى أسد بالكوفة ، وكثر عددهم بها حتى تجاوزوا الألوف وقالوا هو إله وجعفر بن محمد إله إلا أن أبا الخطاب أكبر منه ، وكانوا يقولون جميع أولاد الحسن أبناء الله وأحباؤه ، وكانوا يقولون إنهم لا يموتون ولكنهم يرفعون إلى السماء وأشبه على الناس بهذا الشيخ الذى ترون ثم قالت طائفة منهم بإلٰهية معمر بائع الحنطة بالكوفة وعبدوه ، وكان من أصحاب

(١) نفس المصدر عند أبى العلاء .
(٢) نفس المصدر .

أبي الخطاب لعنهم الله أجمعين »[١] . وكذلك نجد ابن أبي زكريا الطامي مهدى القرامطة قد ادعى الربوبية وسنّ شريعة فاسدة ، وهـذا بحسب رواية البيروني على الأقل[٢] .

وقد استطاع الفاطميون ، وهم سادة القرامطة منذ عهد طويل ، أن يستغلوا فكرة ظهور المهدى بتقدرة وتوفيق لم يتهيأ لهم من بعد . وما أشبه الفاطميين بالنسبة للقرامطة فى تفوقهم عليهم وبلوغهم ما بلغوه من الانتفاع بهذه الفكرة بجبال الألب السوداء فى وقوفها شامخة وراء مرتفعات «الجورا» الخضراء بسويسرة . وإن انبساط سلطان العرب على بلاد المغرب ودخول الخليفة الفاطمى القاهرة ومعه توابيت أجداده لهو أغرب وقائع ذلك العصر المضطرب . وفى ذلك العهد كأنما « قد طلعت الشمس من مغربها » حقيقة كما قال الخليفة المعز لدين الله فى خطاب له[٣] ، وإن قيام دولة الفاطميين لهو أهم الحوادث السياسية فى القرن الرابع الهجرى . ولم يكد يمضى قرن على ظهور أول مهدى لهم ؛ أعنى أنه لم تكد تأتى سنة ٣٦٠ هـ — ٩٧٠ م حتى امتد سلطان الفاطميين على إفريقية الشمالية كلها وعلى الشام ، وحتى بلغ نهر الفرات . وكان لهم « دعاة منبثون فى كل صقع وناحية »[٤] ، ولقد قال الخليفة المعز لدين الله فى كتاب كتبه لأحد قواد القرامطة عام ٣٦٢ هـ — ٩٧٢ م : « وما من جزيرة فى الأرض ولا إقليم إلا ولنا فيه حجج ودعاة يدعون إلينا ، ويدلون علينا ، ويأخذون بيعتنا ، ويذكرون رجعتنا ، وينشرون علمنا ، وينذرون بأسنا ، ويبشرون بأيامنا ، بتصاريف اللغات

---

(١) الفصل ج ٤ ص ١٨٧ ، قارن ما ذكره دى غوى فى هامش ص ١١١ من كتاب عريب القرطبى (؟) .

(٢) الآثار الباقية ص ٢١٣ .

(٣) الاتعاظ للمقريزى ص ١٤١

(٤) الفهرست ص ١٨٩ .

واختلاف الألسن »[١] . وكان القرامطة يطيعون أمرهم ، وكانت بلوخ تعترف لهم بالسيادة . وأقل مظاهر هذا الاعتراف ما حدثنا به ابنُ حوقل من أهل هـذه البلاد يصرحون بأنهم فى دعوة الفاطميين ، وأنهم يجمعون ببلا أموالا وذخائر كثيرة تجلّ عن الوصف ، ويقولون إنها للإمام المعز لدين الله[٢] . ولما قدم الهمذانى الأديب الشاعر حوالى عام ٣٨٠ هـ على جرجان فى أقصى الشمال من فارس — وكان الهمذانى رجلا يعرف دائماً أين تكون القوة الكبرى والمال الأوفر — أقام هناك مدة على مداخلة الإسماعيلية والتعيُّش فى أكنافهم[٣] . على أن الفاطميين لم يأتوا بشىء جديد من الناحية الروحيـة ، وفاتهم أن الذى يحدد مدة أجل العروش هو الروح لا كثرة عدد الجنود ، فلم تكد تمضى عشرون سنة على بلوغ دعوتهم ذروتها فى أيام المعزّ حتى « تناقص أمرُ المذهب وقلّ الدعاة له حتى إنى لا أرى من الكتب المصنّفة فيه شيئاً ... ... هذا ما أعلمه فى هذه البلاد ، وقد يجوز أن يكون الأمر على حاله بنواحى الجبل وخراسان ، فأما ببلاد مصر فالأمر مشتبه ، وليس يظهر من صاحب الأمر المتملّك على الوضع شىء يدلّ على ما كان يُحكى من جهته وجهة آبائه »[٤] .

أما مذهب الإسماعيلية فى القرن الرابع الهجرى فلا نعرف عنه إلا القليل ، وأكبر مصدر يرجع تاريخه إلى ذلك العهد ، هو ما حكاه أخو محسّن ، وحفظه لنا النويرى والمقريزى وترجمه دى ساسى[٥] وهو كتاب مطعون فى مصدره ، لأنه

---

(١) الاتعاظ للمقريزى ص ١٣٩ — ١٤١ ، وكان حاكم الشرق من قبل المهدى فى الرىّ ، وكان يخضع له الدعاة حتى دعاة العراق مثل بنى حمّاد فى الوصل (الفهرست ص ١٨٩) .

(٢) ابن حوقل ص ٢٢١ .

(٣) الإرشاد لياقوت ج ١ ص ٩٦ .

(٤) الفهرست ص ١٨٩ .

(٥) de Sacy : Exposé de la Religion des Druses, LXXIV ff

مأخوذ عن كتاب فى الرد على الإسماعيلية لابن رزام ؛ وقد أوجس صاحب الفهرست خيفة من النقل عن هذا الكتاب فهو يروى عنه ويقول : وأنا أبرأ من العهدة فى الصدق عنه والكذب فيه[١] ، وكذلك يعتبر المقريزى أن هذا الكتاب مزيج من الحق والباطل . أما النصوص التى نشرها جويار (Owyard) فلا نعرف تاريخها حتى الآن ؛ ولا يكفى مجرد ذكر أسماء القدماء فيها لإثبات تاريخها ، لأن الانتحال فى الكتب كان على أشده بين جميع هذه الفرق . ونجد بين مؤلفى القرن الرابع الهجرى من يزيف الكتب المنسوبة لعبدان صاحب حمدان قرمط ، فيقول إن أكثرها منحولة إليه[٢] . على أن أهم نقطة هى التى نجدها عند الشهرستانى من أن هناك بين الإسماعيلية فى القرن الرابع الهجرى وبين متأخريهم فى القرن الخامس الهجرى بونا بعيدا ، وأننا يجب أن نفرق بين اعتقاد الخليفة المعز وبين اعتقاد « شيخ الجبل » تفرقة تامة[٣] . ومما يؤسف له أن ابن حزم يكاد يسكت عن الإسماعيلية سكوتا تاما يدعو إلى الاستغراب ، وهو يكتفى بأن يقول إنهم والقرامطة طائفتان مجاهرتان بترك الإسلام جملة ، قائلتان بالمجوسية المحضة[٤] . وكذلك سكت عنهم أبو العلاء فى رسالة الغفران ، فلم يقل إلا قليلا جدا ، ولعل وجوده على مقربة من سلطانهم هو الذى أمسك لسانه عنهم . فليس عندنا معلومات نثق بصحتها فيما يتعلق بهم إلا عند صاحب الفهرست ، وهو يذكر أنه كان عندهم سبع درجات من الأتباع — خلافا لما ذكره أخو محسن من درجات تسع — ؛

---

(١) الفهرست ص ١٨٧ .

(٢) الفهرست ص ١٩٧ ، ١٨٩ .

(٣) الملل والنحل للشهرستانى على هامش الفصل لابن حزم — الكلام على الإسماعيلية فى الجزء الثانى .

(٤) الفصل ج ٢ ص ١١٦ ؛ على أننا يجب ألا نأخذ هذه النسبة على ظاهرها فقد كانت كلمة المجوسية تستعمل فى ذلك العهد بمعنى الزندقة ، فحكى القشيرى (٣٢) عن أحد الصوفية أنه وصف رأيا لم يعجبه بقوله إنه مجوسية محضة .

ولكل طبقة كتاب يتضمن ما تعرفه ويسمى بالبلاغ ، والبلاغ الأول للعامة والثانى لمن فوقهم قليلا ، أما الثالث فهو لمن دخل فى المذهب سنة ، ثم يُعطى بعد ذلك بلاغا كلما طال بقاؤه سنة أخرى . ولكن ابن النديم لم يحدّد متى يبلغ الإنسان الدرجة السابعة ، ومتى يُعطى البلاغ السابع ، واكتفى بقوله عن هذا البلاغ إنه الذى فيه نتيجة المذهب والكشف الأكبر ، وإنه قرأه فوجد فيه أمراً عظيما من إباحة المحظورات والوضع من الشرائع وأصحابها[1] ، وكانت هذه الفرقة فى ذلك العهد يستعملون التأويل حتى إن أحدهم وهو الحسين بن على القرمطى ، كان يُجرى رزقا على أبى زيد البلخى المتوفى عام ٣٢٢ هـ — ٩٣٣ م فلما ألف أبو زيد كتابه المسمى البحث فى التأويلات ، وأنكر فيه ما ليس بواضح مشهور من التأويل ، قطع الحسين عنه ما كان يُجريه عليه[2] . إن ما نجده عند هذه الفرق من تصوُّر الدين بأنه معرفة الله معرفة عقلية ، وفى تقسيم الناس طبقات بحسب درجتهم فى المعرفة ، ثم ما نجده فى كتب من جاء بعدهم من عناية وتدقيق فى بيان اثنينية العوالم أو كثرتها ، كل هذا يشير مرة أخرى إلى مذاهب الغنوسطيين القدماء . ويتّهم صاحب الفهرست ميمونا القداح وابنه عبد الله وهما مؤسسا مذهب الإسماعيلية بأنهما كانا ديصانيّين[3] ، ونستطيع أن نرد مذهب الإسماعيلية من حيث أجزاؤه إلى مذهب المعتزلة ، وهذا بعينه هو الذى ساعدهم على أن يضيفوا إلى مذهبهم كل ماليس عباسيا ولا سنّيا[4] . على أن شيئا جديداً أحدثه هؤلاء

---

(١) الفهرست ص١٨٩ .

(٢) الفهرست ص ١٣٨ والإرشاد لياقوت ج ١ ص ١٤٢ .

(٣) كتاب الفهرست ص١٨٧ .

(٤) وكان أكبر نجاح للفرقة عام ٢٦٠ هـ — ٨٧٥ م مقارناً لموت الحسن بن على الذى كان جمهور الشيعة يعتبرونه إماماً ، ويجلونه لذلك ، والذى مات عن غير عقب فأحدث ذلك افتراقاً وفتنا بين الشيعة (ابن حزم ج ٤ ص٩٣) .

القوم ، وهو التزام الخطة المرسومة والاشتداد فى اتباعها ؛ وللشرق فهم خاص فى ذلك ، إذا كانت الخطة لغرض دينى ، وقد استخدمها الحسين الأهوازى الداعى الفاطمى فى إدخال حمدان قرمط فى المذهب على صورة تمثل النموذج الذى احتذاه أولئك القوم فى دعوة الناس إلى رأيهم . يقول المقريزى : « لما خرج الحسين الأهوازى داعية إلى العراق لقى حمدان بن الأشعث قرمط بسواد الكوفة ، ومعه ثور ينقل عليه ، فتماشيا ساعة ، فقال حمدان للحسين : إنى أراك جئت من سفر بعيد وأنت مُعْيِي ، فاركب ثورى هذا ؛ فقال الحسين : لم أومر بذلك ؛ فقال له حمدان : كأنك تعمل بأمر أُمر لك ، قال : نعم ، قال : ومن يأمرك وينهاك ؟ ؛ قال : مالكى ومالكك ومن له الدنيا والآخرة ؛ فبُهت حمدان قرمط يفكر ؛ ثم قال : يا هذا ! ما يملك ما ذكرته إلا الله ؛ قال : صدقت ، والله يهب ملكه لمن يشاء . ثم بدأ يدعوه ، ويقول له : دُفع إلىّ جراب فيه علم وسرّ من أسرار الله ؛ فقال له حمدان : يا هذا ! نشدتك الله إلا دَفَعْتَ إلىّ من هذا العلم الذى معك ، وأنقذتنى ينقاك الله . . . ثم أخذ عليه العهد . . . . . وصار الحسين معه إلى منزله ، وأقام به . وكان الحسين على غاية ما يكون من الخشوع ، صائماً نهاره ، قائماً ليله ، فكان المغبوط من أخذه إلى منزله ليلة ، وكان يخيط لهم الثياب ويكتسب بذلك ، فكانوا يتبركون به وبخياطته »[1] . وهذه الفرقة التى أدمجت فى مذهبها كثيراً من المذاهب القديمة التى كانت فى العراق استعملت طريقة الكتابة على الطين ؛ فكان دعاة القرامطة يعطون أتباعهم خواتيم من طين أبيض مكتوب عليها مثلا : محمد بن إسماعيل الإمام المهدى ولىّ الله[2] . ومما استحدث أيضاً فى دولة الفاطميين أنها أوجدت هيئة شبيهة بالكهنوت Klerus تعترف بهم

(١) الاتعاظ المقريزى ص ١٠١ — ١٠٢ .
(٢) المنتظم لابن الجوزى ص ٢٩ ب

رسميا وتعطيهم أرزاقاً ، وشيء ما لم يحدث قط فى الإسلام ، وهم المسمون الدعاة الذين أصبحوا أشبه بالقسيسين Pfarrer ، ورئيسهم الأعلى الذى يشرف عليهم يُسمّى داعى الدعاة ، وهو من أكبر أصحاب المناصب[١] .

على أنه كلما زاد عدد من يدعى الهدية والألوهيـة أصبح ادعاء النبوة شيئاً قديماً لا يستهوى الأدعياء . ومنذ قرن ادعى بعض الجهال النبوة فكانوا موضعاً للتندّر والاستهزاء . وفى أخبار الخليفة المأمون أحاديث له مع كثير من المتنبئين ؛ ولا تخلو هذه الأحاديث من طرافة وتشويق . أما فى القرن الرابع فنجد بين حين وآخر من يظهر بدعوى النبوة فى إقليم من الأقاليم . ففى عام ٣٢٢ هـ — ٩٣٤ م ، ظهر بباسند من أعمال الصغانيان — وهى من بلاد ما وراء النهر المشهورة بالتقى والصلاح — رجل ادعى النبوة ، فقصده فوج بعد فوج ، واتبعه خلق كثير ، وحارب من خالفه . . . وكثر أتباعه من أهل الشاس ، وكان صاحب حيل ومخاريق ، فكان يدخل يده فى حوض ملآن بالماء ويخرجها مملوءة دنانير ، إلى نحو ذلك . ولما كثر جَمْعُه وخيف شرُّه أنفذ إليه الحاكم جيشاً فحاربوه وضيقوا عليه وقتلوه[٢] . وتنبأ رجل بمدينة أصفهان حوالى عام ٣٢٥ هـ ، فسئل عن آيته وحجته فقال : من كان منكم له زوجة حسناء أو بنت جميلة أو أخت صبيحة فليحضرها إلى أحبلها بابن فى ساعة واحدة[٣] ، فقال والى الخراج أبو الحسين بن سعد : أما أنا فأشهد أنك رسول الله ، وأعفنى من ذلك ؛ وقال له رجل : نساء

---

(١) ناصر خسرو ص ١٦٠ من الترجمة .

(٢) ابن الأثير ج ٨ ص ٢١٦ .

(٣) وحكى مثل هذا عن رجل تنبأ أيام المأمون ، فتوجه إلى الخليفة وقال للحاجب : أبلغ أمير المؤمنين أن نبى الله بالباب ، فأذن له ، فقال له ثمامة : ما دليل نبوتك ؟ قال تحضر لى أمك فأواقعها فتحمل من ساعتها ، وتأتى بغلام مثلك ، فقال ثمامة : صلى الله عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته ذلك أهون علىّ من إحضارك أمى ومواقعتها — المحاسن والمساوىء للبيهقى ص ٣٤ من الطبعة الأوربية .

ما عندنا ؛ ولـكن عندي عنز حسناء ، فأحبلها إلى ، فقام يمضى ، فقيل له : إلى أين ؟ قال : أمضى إلى جبريل ، وأعرفه أن هؤلاء يريدون تَيْساً ولا حاجة بهم إلى نبي ؛ فضحكوا منه وأطلقوه[١] . وقد لُقِّب الشاعر أبو الطيب المتنبي المتوفى عام ٣٥٤ هـ — ٩٦٥ م بالمتنبي لأنه ادعى النبوة فى بادية السماوة ونواحيها ، واجتمع إليه هناك قوم من قبائل العرب ؛ وكان ابن خالويه يعيّره بهذا الاسم ، ويقول له إن المتنبي معناه الـكاذب ، ومن رضى أن يدعى بالـكاذب فهو جاهل . وسئل المتنبي عن تلقيبه بهذا اللقب ، فأجاب سائله بجواب مغالط وقال : هو شيء كان فى الحداثة ، أوجبته الضرورة ، فاستحى سائله أن يستقصى معه الـكلام وأمسك[٢] .

على أن هذا القرن لم يخل من قوم تنكبوا عن الدعوى العريضة ، وجاهدوا أنفسهم وقمعوها ، واكتفوا بأن يكونوا عابدين لله خاشعين ، لا يبتغون شيئاً فوق العبودية له ، متّبعين سنن الرعيل الأول من المسلمين . وكان من العادات المحبوبة كثيراً عند كبار المتعبدين فى ذلك العصر أن الواحد منهم لا يخرج إلا يوم الجمعة للصلاة[٣] . ولقد آلى أبو العلاء المعرى الشاعر المتوفى عام ٤٤٩ م — ١٠٥٧ م على نفسه ألا يترك بيته أبداً ، مع أنه لم يكن من رجال الدين المتعبدين ؛ وكان كثير من عبّاد ذلك العصر مأواهم المسجد[٤] ، ويحكى أن الخليفة القادر كان يقسم الطعام الذى يهيأ له ثلاثة أقسام ، فيترك قسما بين يديه ، ويأمر بحمل القسمين الآخرين ليُفَرَّقا على المجاورين فى جامعين كبيرين ببغداد[٥] ، وفى

---

(١) الإرشاد لياقوت ج ١ ص ١٣٠ — ١٣١ .

(٢) المنتظم لابن الجوزى ص ١٩٦ أ — ب .

(٣) المنتظم مثلا ص ١٥٨ ب ، وفى مواضع كثيرة مثل ص ١٦٩ أ .

(٤) نفس المصدر ص ١٥٨ ب .

(٥) نفس المصدر ص ١٣٢ ب .

وفى سنة ٣٨٤ هـ — ٩٩٤ م توفى أبو العباس عبد الله بن محمد البشتى الزاهد ، وكان من الصالحين وبقى سبعين سنة لا يستند إلى حائط ولا إلى مخدة[١] . ويحكى الهجويرى أنه لقى بخراسان رجلا من الصالحين يسمى الأديب الكُمندى مضت عليه عشرون سنة لم يجلس إلا للتشهد فى الصلاة ، وسئل فى ذلك فقال : ليست لى هذه الدرجة بعد حتى أجلس وأنا أشاهد الحق[٢] . ويحكى عن آخر من أصحاب التهجد والعبادة أنه لم يعرف له فراش أربعين سنة[٣] . وكذلك بنى آخر قبرا لنفسه بجنب بشر الحافى ؛ وكان يمضى إلى ذلك الموضع فيختم فيه القرآن ويدعو ، ومضى على ذلك عدة سنين[٤] . ويحكى عن محمد بن عبد الله بن أحمد الصفار الأصبهانى المحدث الصالح المتوفى عام ٣٩٩ هـ — ٩٥٠ م أنه كان مجاب الدعوة ، ولم يرفع رأسه إلى السماء نيفا وأربعين سنة[٥] . وفى سنة ٣٣٦ هـ — ٩٤٧ م توفيت بمكة ابنة أحد الصالحين ، وكانت ورعة عابدة ، وكانت تقتات طول عامها من ثلاثين درهما ينفذها لها أبوها[٦] . وفى سنة ٣٤٨ هـ — ٩٥٩ م توفى أحد العلماء ، وكان يصوم الدهر ويفطر كل ليلة على رغيف ويترك منه لقمة ؛ فإذا كان ليلة الجمعة تصدق بذلك الرغيف وأكل تلك اللقم التى استفضلها[٧] . وفى سنة ٤٠٤ هـ . ١٠١٣ م توفى ابن البغدادى الزاهد العابد ، وكان يخرج إلى الناس وقد انشقت رأسه أو انفتحت جبهته ، لأنه كان لا ينام إلا عن غلبة ،

---

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ٧٤ .
(٢) كشف المحجوب ص ٣٣٥ .
(٣) ذكر أخبار أصبهان لأبى نعيم مخطوط ليدن رقم ٥٦٨ ص ٩٨ أ .
(٤) الإرشاد لياقوت ج ١ ص ٢٤٧ .
(٥) المنتظم ص ٨٢ أ وطبقات السبكى ج ٢ ص ١٦٦ .
(٦) المنتظم ص ٨٠ أ — ب
(٧) نفس المصدر ص ٨٨ أ .

وكان لا يخلو أن يكون بين يديه محبرة أو قدح أو شيء من الأشياء موضوع ، فإذا غلبه النوم سقط على ما يكون بين يديه ، فيؤثر فى جبهته أثراً ؛ وكان لا يدخل الحمام ، ولا يحلق رأسه ، لكن يقص شعره إذا طال بالجلم . وكان يغسل ثيابه بالماء حَسْبُ من غير صابون ، وكان يأكل خبز الشعير فقيل له فى ذلك ، فقال : الشعير والحنطة عندى سواء[1] . وكان أبو بكر أحمد بن إسحاق المتوفى عام ٣٤٢ هـ — ٩٣٥ م يدعو بين الأذان والإقامة ، ثم يبكى ، وربما كان يضرب برأسه الحائط حتى تكاد تدمى رأسه[2] . ويحكى عن أبى بكر أحمد بن الحسين البيهقى النيسابورى المتوفى عام ٤٥٨ هـ — ١٠٦٦ م أنه كان يصوم الدهر قبل أن يموت بثلاثين سنة[3] .

وذُكر فى عداد العبّاد أيضاً جماعة من أشد المدققين فى مراعاة أحكام الشريعة ؛ فيحكى عن أبى محمد عبد الله بن يوسف الجوينى المتوفى عام ٤٣٨ هـ — ١٠٤٦ م — وهو والد إمام الحرمين — أنه كان وَرِعا زاهداً متحرّيا فى العبادات ، ومن ورعه أنه ما كان يستند فى داره المملوكة إلى الجدار المشترك بينه و بين جيرانه ، ولا يدق فيه وتداً ، وأنه كان يحتاط فى أداء الزكاة ، حتى كان يؤدى فى سنة واحدة مرتين حذراً من نسيان النية ، أو من دفع الزكاة إلى غير المستحق[4] . وتوفى فى عام ٤٩٤ هـ — ١١٠١ م أحد الزهاد بمرو ، وكان لا يأكل الأرز لأنه يحتاج إذا زُرع إلى ماء كثير ، وصاحبه قل أن يظلم غيره فى سقى الماء[5] . ويحكى عن والد إمام الحرمين الجوينى أنه كان حريصاً على ألا يطعمه مافيه شبهة ،

---

(١) نفس المصدر ص ١٦٠ ب .
(٢) طبقات السبكى ج ٢ ص ٨١ .
(٣) نفس المصدر ج ٣ ص ٥ .
(٤) طبقات السبكى ج ٣ ص ٢٠٨ .
(٥) نفس المصدر ج ٣ ص ٢٢٢ .

وقد بكى مرة وأمه مشتغلة بطعام ، وكانت عندهم جارية مرضعة للجيران ، فأرضعته مصة أو مصتين ، فأنكر أبوه ذلك ، وقال : هذه الجارية ليست لنا ، وليس لها أن تتصرف فى لبنها ، وأصحابها لم يأذنوا بذلك ، وتلب ابنه وفزعه ، حتى لم يَدَعْ فى باطنه شيئاً إلا أخرجه [1] . وكذلك جلس على عرش الخلافة بمصر خليفة أراد حيناً من دهره أن يعيش على طريقة الزهاد الأولين من المسلمين ، وأن يطرح الدنيا وشؤونها بعيداً وهو الحاكم بأمر الله . ففى حوالى عام ٤٠٠ هـ — ١٠٠٩ م اقتصر فى مطعمه ومشربه على ما تدعوه إليه الحاجة لتماسك الجسم دون الزيادة والمغالاة فى ذلك ؛ وأغلق مطبخ دار الخلافة واكتفى بأكل ما ترسله له أمه ؛ ومنع الناس من تقبيل التراب بين يديه ومن بوس اليد والارتماء بالسجود له ومن مخاطبته بمولانا ، ورفّى شعره ، وترك ركوبَ الخيل ، وصار يركب الحمير بسرج ولجام حديدى ، مختلطاً بالناس بلا مظلة وبلا طرّاد بين يديه ؛ وأسقط الألقاب وجميع الرسوم والنكوس المستحدثة ، وأعاد للناس كل ما كان أُخذ من أملاكهم وعقارهم فى عهده أو عهد جده بمصادرة أو بغير حق . وفى المحرم من عام ٤٠٠ هـ أعتق سائر مماليكه من الإناث والذكور وحررهم جميعاً لوجه الله تعالى وملّكهم أمرَ نفوسهم . وكان قبل ذلك قد أخرج من قصره جماعة من حظاياه وأمهات أولاده مع ما كان من كثرة شغفه بالجماع ، بل غرّق بعضهن فى صناديق سُمّرت عليهن ، وأُثقلت بالحجارة وأُلقيت فى النيل وذلك رفضاً منه للذة الجسدية . وكان ولى عهده يركب بمراكب الخلافة المرصعة وعليه لباسها ، والحاكم يركب على حمار بسرج ولجام من حديد ، وعليه ثياب صوف بيض ثم سود ، وفوطة زرقاء ، وعمامة سوداء [2] .

---

(١) نفس المصدر ج ٣ ص ٢٥١ .

(٢) تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكى مخطوط بباريس رقم ٢٩١ ص ١٢٢ / ١ — ١٢٩ =

وكثيراً ما يُحكى لنا خبر قوم غيّروا مجرى حياتهم رأساً على عقب ، فآثروا الإعراض عن الدنيا ؛ فيُروى عن أبى محمد إسماعيل بن محمد الدهان الذى برع فى العلم والأدب وعلوم اللسان ، وأخذ عن الجوهرى ، واختص بالأمير أبى الفضل الميكالى ، ومدحه وأباه بشعر كثير — أنه آثر الإعراض عن الدنيا وأحب الزهد وأزمع الحج والزيارة ، وقال أشعاراً فى ذلك . وقد سأل الثعالبى ألا يورد فى كتابه شيئاً من شعره فى الغزل والمدح ، فعمل بما سأله[1] . ويُحكى من خبر أبى جعفر البحاث محمد بن الحسين بن سليمان من إحدى كور نيسابور ، وكان له محل من الشعر والعلم والأدب ، وتصرف بالقضاء فى بلاد خراسان ، أنه قال قصيدة فى الشباب والمشيب ، والحياة والموت ، ومنها :

شبابٌ كلامع برق رحل ... وشيْب كثِل غريم نزل

. . . .

مضت وانقضت غفلاتُ الشبا ... ب وجاء المشيب وبئس البدل

كأنى رأيت الصبا فى المنا ... م خيالا تمثَّل ثم اضمحل

ثم يذكر حال الميت مع أهله فيقول :

فهذا يجاذب ما قد حوا ... ه وهذا يخالسه ما فضل

إذا وضعوه على نعشه ... أشاعوا البكا وأسرُّوا الجذل

وإن دفنوه نسوه معا ... وكلٌّ بميراثه مشتغل

ويختم قصيدته بالتوجع لما مضى فيقول :

أقول وللدمع فى مقلتى ... سوابق قطْرٍ له مستهل

= ويحكى عن الإمبراطور نقفو (Nikephoros Thokas) (٩٦٣ — ٩٦٩ م) القائد العظيم أنه كان فى الليل يلبس ثوباً من الشعر وحزام التوبة الخشن لإيلام نفسه .

(١) يتيمة الدهر ج ٤ ص ٣١٠ .

سلام على طيب عيش مضى وأنس بإخوان صدق نبل
سلام على قوّتى للقيا م إلى الفرض فى وقته والنفل
سلام على الختم فى ليلة بقلب كئيب حليف الوجل
سلام على الكتب ألفتها ووشّحتها بصحاح العلل
سلام على مِدَحٍ صغتها وحبّرتها فى الليالى الطول
سلام امرئ ما اشتهى لم يجد وما رام مجتهداً لم ينَلْ
أناب إلى ربه تائباً ومستغفراً للخطا والزلل[1]

وكثيراً ما كان انقلاب الناس فجأة سببه سماعهم آيات من القرآن لا يظهر لها فى رأينا نحن هذا الأثر الكبير ؛ فيحكى عن جعفر بن حرب المتوفى عام ٣٤٩ هـ ، والذى كان يتقلد كبار الأعمال للسلطان ، وكانت نعمته تقارب نعمة الوزارة ، أنه اجتاز يوما راكبا فى مركب عظيم له ، ونعمته على غاية الوفور والجلال ، فسمع رجلا يقرأ قوله تعالى : « أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الحَقِّ » (سورة الحديد آية ١٦) فصاح : اللهم بلى ! وكرّرها دفعات وبكى ، ثم نزل عن دابته ، ونزع ثيابه ، ودخل إلى دجلة واستتر بالماء ، ولم يخرج منه حتى فرّق جميع ماله فى المظالم التى كانت عليه ، وردها وتصدق بالباقى ، فاجتاز رجل فرآه فى الماء قائما ، وسمع بخبره فوهب له قميصا ومئزراً ، فاستتر بهما وخرج ، وانقطع إلى العلم والعبادة حتى مات[2] . على حين أننا نجد قوما آخرين لا يلتفتون إلى اتقاء شدائد يوم المعاد إلا فى آخر عمرهم ؛ فيحكى عن نصر ابن أحمد السامانى المتوفى عام ٣١٠ هـ — ٩٤٢ م أنه فى مرضه الطويل الذى

---

(١) يتيمة الدهر ج ٤ ص ٣٢٠ — ٣٢١ .
(٢) المنتظم ص ١٨٩ .

مات فيه بنى لنفسه بيتا أمام باب القصر، وسماه « بيت العبادة » ، وكان فيه يصلى ويدعو ويتضرع وهو فى لباس التوبة[١] ، ويحكى أيضا عن السلطان معز الدولة المتوفى عام ٣٥٦ هـ — ٩٦٦ م أنه لما اشتدت به العلة وأحس بالموت أظهر التوبة ، وأحضر وجوه المتكلمين والفقهاء ، وسألهم عن حقيقة التوبة ، وهل تصح له ؟ فأفتوه بصحتها ، ولقّنوه ما يجب أن يقول ويفعل ، فتصدق بأكثر ماله ، وأعتق مماليكه ، وردّ شيئا كثيراً من المظالم ، وبكى حتى غُشى عليه[٢] .

وكان الحج فى تلك العصور بسبب ما كان فى الطرق العربية من المخافات وقلة الأمن غير ممكن أحياناً ، أو معرّضاً صاحبَه للموت أحياناً أخرى . فمنذ خروج القرامطة وفتكهم بقوافل الحج وإيقاعهم حتى بقافلة السلطان[٣] صار الحاج يدفعون مكساً للأعراب ليسمحوا لهم بالمرور آمنين . وفى سنة ٣٨٥ هـ أُرسل إلى الأصيغر أمير العرب تسعة آلاف درهم عوضاً عما كان يأخذه من الحاج وصار ذلك رسماً له[٤] . وكان بعض الأمراء يدفعون أيضاً مالا من عندهم لتأمين طريق الحاجّ إلى جانب ما كانت تدفعه حكومة بغداد ، فكان أمير الجبل يبعث إلى الأصيغر أيضاً خمسة آلاف دينار فى كل عام ، وجعل ذلك رسماً له ، وكان يزيده فى كل سنة حتى بلغ تسعة آلاف ومائتى دينار[٥] . وفى سنة ٣٨٤ هـ — ٩٩٤ م خرج الحاج إلى مكة ، فاعترضهم الأصيغر الأعرابى ، ومنعهم من الجواز ، وذكر أن الدنانير التى أرسلها السلطان عام أول كانت دراهم مطلية ، وأنه لا يفرج لهم عن الطريق إلا بعد أن يعطوه رسمه لسنتين ، وطالت المخاطبة والمراسلة حتى

---

(١) Mirehond, HistSom. S. 50 وابن الأثير ج ٨ ص ٣٠١ .
(٢) مسكويه ج ٦ ص ٢٩٥ ؛ والمنتظم لابن الجوزى ص ١٠٠ ا .
(٣) التنبيه والإشراف للمسعودى ص ٣٧٥ .
(٤) المنتظم ص١٣٦ ب .
(٥) نفس المصدر ١٣٩ ب .

ضاق الوقت على الحجاج فرجعوا [١]. وفى سنة ٤٢١ هـ ١٠٣٠ م تأخر الحاج من خراسان ، ولم يخرج من العراق إلا قوم ركبوا من الكوفة على جمال البادية ، وتحفروا من قبيلة إلى قبيلة ، بلغت أجرة الراكب إلى أربعة دنانير [٢] . وكان الحاج فى أوقات السلام والأمن يعانون الشدائد المخيفة بسبب قلة الماء فى الصحراء حتى بالنسبة لمن كان يجاور جزيرة العرب ؛ ويشبه ابن المعتز صاحب السوء الذى لا بد منه بماء طريق الحج فيقول [٣] :

وصاحب سوء وجهه لى أوجه ... وفى فمه طبل بسرى يضرب
إذا ما قلا الإخوان كان مرارة ... يعرض فى قلبى مراراً وينشب
ولا بد لى منه فحيناً يغضنى ... وينساغ لى حيناً ووجهى مقطب
كماء طريق الحج فى كل منهل ... يذم على ما كان منه ويشرب

وكثيراً ما نقرأ فى تراجم المسلمين هذه العبارة المؤلمة ، وهى أن يقال : «ومات فى طريق الحج» ، وفى عام ٢٩٥ هـ — ٩٠٧ م أصاب الحجاج فى منصرفهم ببعض الطريق عطش حتى مات منهم جماعة ، قال الطبرى : سمعت بعض من يحكى أن الرجل كان يبول فى كفه ثم يشرب [٤] . وفى سنة ٤٠٢ هـ — ١٠١١ م هاجت ريح سوداء على الحجاج ، وهم فى بعض الطريق ، فنفدوا الماء ، وهلك منهم خلق كثير ، وبلغ ثمن القربة من الماء مائة درهم [٥] ، وفى عام ٤٠٣ هـ — ١٠١٢ م سبق بعض الأعراب الحجاجَ إلى مواضع الماء ، فنزحوها ، وغوروها ، وطرحوا الحنظل فى الآبار ، وترصدوا الحجاج ، ومنعوهم من الاجتياز ، وطالبوهم

---

(١) نفس المصدر ١٥٣ ب ؛ وتاريخ ابن الأثير ٩ ص ٧٤ .
(٢) المنتظم ص ١٨١ ظ .
(٣) ديوان ابن المعتز ٢ ص ٥ .
(٤) صريب ص ٢٤ .
(٥) المنتظم ص ١٥٨ ظ .

بمال كثير ، وبلغ منهم العطش مبلغاً كبيراً ، وقيل إنه هلك منهم خمسة عشر ألفاً ولم يفلت إلا عدد يسير ، وكوتب عامل الكوفة — وكان عليه أن يحفظ طريق الحاج[1] — بأن ينهض لطلب الأعراب الذين فعلوا هذا الفعل ، ويوقع بهم بما يشفي الصدر منهم ، فلحق بهم فى البرّية وأوقع بهم وقتل كثيراً منهم ، وأسر خمسة عشر من وجوههم ، وأرسلهم إلى بغداد فشهروا هناك ، وأودعوا الحبس ، وأجيع منهم جماعة وأطعموا المالح وتركوا على دجلة ، حتى شاهدوا الماء حسرة وماتوا عطشاً . وتم الظفر بعد سنين ببقى خفاجة الذين كانوا أضرّ الناس بالحجاج فى ذلك العهد ، فأفلت من فى أسرهم من الحجاج ، وكانوا قد جعلوهم رعاة لأغنامهم فعادوا ، وقد قُسمت تركاتهم وتزوجت نساؤهم[2] . وفى سنة ٤٠٥ هـ — ١٠١٤ م هلك من الحاج كثيرون ، وكانوا عشرين ألفا فسلم ستة آلاف ، وقد اشتد الأمر بهم حتى شربوا أبوال الجمال وأكلوا لحومها[3] ، وكانت سيول الأنهار الصغيرة التى تنشأ عن المطر فى الصحراء تصيب الحجاج أيضا ببعض الأذى ، ففى سنة ٣٤٩ هـ — ٩٦٠ م « انصرف حاج مصر بعد أن قضوا حجّهم ، فنزلوا فى وادٍ بمكة ، فلما كان بالليل حملهم الوادى وهم لا يشعرون ، فغرق أهل مصر ، وكانوا عددا كبيرا جدا ، وكبسهم الماء مع أمتعتهم إلى البحر »[4] . وكان المفرطون فى الصلاح والعبادة يحجون سيرا على أقدامهم ، ويُحكى عن أحد العباد الراغبين فى الحج أنه كان يصلى عند كل ميل ركعتين[5] ، وكان من عادة الصوفية أن يخرجوا فى هذا السفر الطويل متوكلين بلا زاد ولا مال[6] . وعلى عكس هؤلاء كان هناك قوم

(١) مسكويه ج ٥ ص ٢٤٧ . (٢) المنتظم ص ١٥٩ ا .
(٣) نفس المصدر ص ١٦٢ ب . (٤) مسكويه ج ٦ ص ٢٤٠
(٥) ذكر أخبار أصفهان لأبى نعيم مخطوط ليدن ص ٧١ ب .
(٦) انظر رسالة القشيرى فى باب التوكل ؛ والإرشاد لياقوت ج ٢ ص ٣٥٧ حيث يقول أحد الصالحين :

فلو كان بالإمكان سعى بمقلتى إليك رسول الله أقتيتها سعيا

أرادوا جمع المال من القيام بالحج بالنيابة عمن يأجرهم على ذلك ، وفى هؤلاء يقول المقدسى : « ورأيت من حج بأجرة انتكس قلبه ، فإن عاد ازداد نكوسا ، ومن ورعه حتى ربما أخذ الحجتين والثلاث ، ولم أرَ لهم بركة ، ولا جمعوا منه ما قط »[١] . وكانت عودة الحجاج عيدا كبيرا ، فكان الحجاج يبيتون بالياسرية إحدى ضواحى بغداد ، ثم يبكرون لدخول بغداد[٢] . وكان الخليفة يستقبل الحجاج العائدين الذين يمرون ببغداد فى طريقهم إلى المشرق ، ففى عام ٣٩١ هـ — ١٠٠٠ م جلس الخليفة القادر بالله إلى أهل خراسان العائدين من الحج ، وقرئ فى هذا الحفل العظيم على رءوس الملأ كتابُ تقليد ولى العهد[٣] . وكانت ثم أماكن مقدسة فى كثير من الجهات من شأنها أن تأخذ نصيبا من مجموع الحجاج الذين يقصدون مكة ، ومما له دلالته أن البعض كان يزعم أن سبع زورات لمسجد يونس قرب نينوى القديمة — وهو المسجد الذى بنته جميلة بنت ناصر الدولة — يعدلن حجة ، ولا شك فى أن المشاهد التى هى أهم من مسجد يونس تكون زياراتها التى تعادل حجة أقل من ذلك[٤] . ونجد مدينة بيت المقدس بوجه خاص قد استفادت فى هذه الظروف الجديدة مما كان لها منذ عهد طويل من مزايا تجذب الناس إليها . ويحدثنا ناصر خسرو فى القرن الخامس الهجرى أنه فى وقت الحج كان الناس الذين لا يستطيعون الذهاب إلى مكة من سكان الشام وأطرافها يقصدون بيت المقدس فى موسم الحج ويضحون ضحية العيد كما هى العادة ؛ وكان يجتمع بها أكثر من عشرين ألف إنسان فى بعض السنين وكانوا يحملون أبناءهم ويؤدّون السنّة[٥] . ويُحكى لنا أيضا إنشاء نماذج للأماكن المقدسة ، على نحو يشبه

(١) المقدسى ص ١٢٧ .
(٢) مصارع العشاق للسراج طبعة القسطنطينية ص ١٠٩ .
(٣) كتاب الوزراء ص ٤٢٠ ؛ والمنتظم ص ١٤٦ أ .
(٤) المقدسى ص ١٣٦ .
(٥) ناصر خسرو ترجمة شيفر ص ٦٦ .

تمثيل جبل الجلجلة عندنا ، فقد رُوى عن الخليفة المتوكل فى القرن الثالث الهجرى أنه بنى بمدينة سامرا كعبةً ، وجعل هناك طوافا ، واتخذ منى وعرفات ، ليغرّ بذلك أمراء كانوا معه لما طلبوا الحج خشية أن يفارقوه[١] . وكان فى ذلك العصر طائفة كبيرة بين الصوفية لا يجعلون للحج ماله من شأن ، ويحكى عن أحد الصوفية الأولين أنه أمر أحد الحجاج بالرجوع عن الحج والقيام بحقوق أمّه[٢] ويُؤثر عن صوفى توفى عام ٣١٩ هـ — ٩٣١ م أنه قال[٣] : « عجبتُ لمن يقطع البوادى والقفار ليصل إلى بيت الله وحرمه ، لأن فيه آثار أنبيائه ، كيف لا يقطع نفسه وهواه حتى يصل إلى قلبه لأن فيه آثار مولاه ! » . ويُذكر لأبى حيان التوحيدى ، وكان صوفى السمت والهيئة ، متفننا فى الكلام على مذهب المعتزلة ، أنه ألف حوالى عام ٣٨٠ هـ — ٩٩٠ م « كتاب الحج العقلى إذا ضاق القضاء عن الحج الشرعى »[٤] . ويُحكى أن الوزير نظام الملك فى القرن الخامس الهجرى استأذن السلطان ملكشاه فى الحج ، فأذن له ، فخرج ، فلما عبر دجلة ، وضرب خيامه ، جاء فقير تلوح عليه سيما القوم (الصوفية) إلى الخيمة التى فيها الوزير ، وأعطاه رقعة مطويّة كان فيها : رأيت النبى صلى الله عليه وسلم وقال لى : أذهب إلى الحسن ، وقل له : أين تذهب إلى مكة ؟ حجُّك هاهنا ، أمّا قلتُ لك : أتم بين يَدَىْ هذا التركى ، وأعِنْ أصحاب الحوائج من أمتى ؟ فرجع نظام الملك[٥] . ويقول الحجويرى نفسه فى القرن الخامس الهجرى وهو مثال الصوفية المعتدلين : « الحج نوعان : الأول فى الغيبة ، والثانى فى الحضور ، فمن كان غائباً عن الله فى مكة كمن كان

---

(١) المقدسى ص ١٢٢ — ١٢٣ .
(٢) كشف المحجوب ٩١ .
(٣) نفس المصدر ١٤٠ .
(٤) الإرشاد لياقوت ج ٥ ص ٣٨٢ .
(٥) طبقات السبكى ج ٣ ص ١٤٠ .

غائبا عنه فى بيته ؛ ومن كان حاضرا مع الله فى بيته فكأنه حاضر معه فى مكة .. فالحج مجاهدة لكشف المشاهدة ، والمجاهدة ليست علة للمشاهدة ، ولكنها وسيلة لها ... فليس المقصود من الحج رؤية البيت بل المقصود الحقيقى مشاهدة الله[1] ، ويخيل للإنسان أن طوائف المثقفين صاروا يجعلون لزيارة المدينة شأنا أكبر بسبب ما صاروا يرونه من التبجيل العظيم للنبى (عليه السلام) ؛ ويحكى أن البخارى صنف كتابه فى التاريخ عند قبر الرسول عليه السلام[2] . ويقول أبو محمد النيسابورى الذى أخذ عن الجوهرى ثم آثر الزهد والإعراض عن الدنيا ، وذلك عند ما أزمع الحج والزيارة[3] :

أتيتك راجلا ووَدِدْتُ أنى ملكتُ سوادَ عينى أمتطيه
ومالى لا أسير على المآقى إلى قبرٍ رسولُ الله فيه

ويحكى عن جعفر بن الفضل بن الفرات (المتوفى عام ٣٩١ هـ) وهو الذى استجلب الدارقطنى المحدث من بغداد ، وبرّ إليه ، وأنفق عليه نفقة واسعة ، وكان وزيراً لكافور الأخشيدى ، أنه اشترى داراً بالمدينة إلى جانب المسجد من أقرب الدور إليه وأوصى أن يُدفن فيها[4] . ويحكى عن الوزير أبى شجاع محمد بن الحسن المتوفى عام ٤٨٨ هـ — ١٠٩٥ م أنه « مات وهو أحدُ خُدَّام روضة المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وكان يكنس المسجد ، ويفرش الحصر ، ويشعل المصابيح »[5]

وكذلك لم يهمل الناس واجب الجهاد فقد اعتنوا به جادين على عادتهم دائما ؛ وأراد كثير من المؤمنين الصالحين أن يدخلوا الجنة من باب الجهاد فى سبيل الله ، فكان غزاة المسلمين من كل بلد وناحية يتدفقون كالسيل إلى مدينة

---

(١) كشف المحجوب ص ٣٢٩ .
(٢) تاريخ أبى الفدا عام ٣٠٦ هـ (ج ٢ ص ٢٣٦ من الطبعة الأوروبية) .
(٣) الإرشاد ج ٢ ص ٣٥٧ .
(٤) نفس المصدر ج ٢ ص ٤٠٨ . (٥) طبقات السبكى ج ٣ ص ٥٨ .

طرسوس ، وكانت قاعدة حربية وثغرا من ثغور مملكة الإسلام مما يلى حدود الروم ، وهم أعداء الإسلام الذين ورثوا عداوته جيلا عن جيل ؛ كما كانت ترد على تلك المدينة صلاتُ أهل البر وأرباب النعم من المسلمين الذين لا يستطيعون الخروج للجهاد بأنفسهم ، يقول ابن حوقل : « ليس من مدينة عظيمة من حدّ سجستان وكرمان ... إلى مصر والمغرب إلا وبها (طرسوس) لأهلها دار ينزل بها غزاةُ تلك البلدة ، ويرابطون بها إذا وردوها ، وتكثر لديهم الصِّلاتُ ، وتَرِدُ عليهم الأموالُ والصدقات العظيمة الجسيمة ، إلى ما كان السلاطين يتكلّفونه وأرباب النعم يبذلونه وينفذونه متطوّعين متبرعين ؛ ولم يكن فى ناحية ذكرتها رئيسٌ ولا نفيس إلا وله عليها وقف من ضيعة ذات مزارع وغلات أو مسقّف من فنادق »[1] . وكان أهل الثغور يُكرَمون فى بغداد ، ويحكى عن أبى على القالى اللغوى المشهور المتوفى عام ٣٥٦ هـ — ٩٦٧م أنه سُمّى القالى لأنه لما انحدر إلى بغداد كان فى رفقةٍ فيها أهلُ قالى قلا ، وهى قرية من قرى منازجرد (بأرمينية) ، وكانوا يُكرَمون لمكانهم من الثغر ، فنُسب إليهم لكونه معهم ، وثبت على ذلك[2] . وكثيراً ما كان من الحيل التى يلجأ إليها بعض المكدّين والتى يجنون منها المال الوفير أن يسيروا مخادعين للناس بدعوى جمع المال للجهاد أو لفك الأسرى ، وكثيرٌ من هؤلاء المحتالين كانوا يركبون دواب كالغزاة ، ويطوفون البلاد ليوهموا الناس بصدق حيلتهم[3] . وكانت ثغور مصر المسماة بالمواحيز يعمرها أهل الديوان والمطوّعة ، وكانت أحباس السبيل التى يتولاها القضاة تُجمع فى كل سنة ، فإذا كان شهر أيبب بعث القاضى ما اجتمع من أموال السبيل فرُقّت على مواحيز

---

(١) ابن حوقل ص ١٢٢ — ١٢٣ .

(٢) الإرشاد لياقوت ج ٢ ص ٣٥٣ .

(٣) انظر القصيدة الساسانية لأبى دلف فى يتيمة الدهر ج ٣ ص ١٧٩ — ١٨٠ .

مصر من العريش إلى لوبية ، وأعطيت للمطوّعة ومن كان فقيرا من أهل الديوان[١] .

وكانت بلاد ما وراء النهر ثانية ناحية تلي طرسوس من حيث وقوف أهلها للجهاد ، وذلك لما اشتهر به أهل ما وراء النهر من الشوكة وشدة البأس ؛ ومن أنهم أكبر أهل الإسلام نصيبا فى التضحية وأعظمهم حظا فى الجهاد : يقول الأصطخرى : « لا تجد فى بلدان الإسلام أهلَ الثروة إلا والغالبُ على أكثرهم صرفُ نفقاتهم إلى خاصّ أنفسهم فى الملاهى وما لا يرضاه الله ، و إلى المنافسات فيما بينهم فى الأشياء المذمومة إلا القليل ؛ وترى الغالب على أهل الأموال بما وراء النهر صرف نفقاتهم إلى الرباطات وعمارة الطرق والوقوف على سبيل الجهاد ووجوه الخير إلا القليل منهم » ؛ وكان فى مدينة بيكَند بين بخارى ونهر جيحون ما يقرب من ألف رباط للغزاة المجاهدين[٢] ؛ ويقال إنه كان بمدينة اسبيجاب ، وهى ثغر جليل ودار جهاد ، ألف وسبعمائة رباط يجد فيها أصحاب الحاجة طعاما لهم وعلفاً لدوابهم[٣] ؛ وكانت رغبة الخراسانيين فى الجهاد وحميتهم له سبباً فى سيرهم إلى الجبهة الغربية فى مملكة الإسلام ، وذلك عند ما توالى نجاحُ الروم فى مهاجمة بلاد الإسلام : ففى عام ٣٥٥ هـ خرج من خراسان قوم يُظهرون أنهم غزاة ، وكان عددهم نحواً من عشرين ألفاً ، وساروا حتى بلغوا الحدود الشرقية لدولة بنى بويه ، ولكن سيرتهم لم تكن سيرة الغزاة ، فلم يكن لهم رئيسٌ واحد ، بل كان لأهل كل بلد من بلادهم رئيس ، فاسترابَ بهم صاحب الحدّ ، وأرسل بصورتهم ، وخالف ركنُ الدولة وزيرَه ابنَ العميد فى أمرهم ، وكاتب صاحب الحد بأن يأذن لهم فى الدخول ، فسار القوم بأجمعهم ، ومعهم فيل عظيم من بين الفيلة ، واجتمع رؤساؤهم إلى الوزير ابن العميد ، وخاطبوه أن يسأل الأمير ركن الدولة أن يطلق لهم مالاً يستعينون به على أمرهم ،

(١) القضاة والولاة للكندى طبعة جوست (Guest) ص ٤١٨ — ٤١٩ .
(٢) الأثير ... ٢٠ ، ٣١٤ . (٣) المقدسى ص ٢٧٣ .

وظن أن القليل يكفيهم على رسم الغزاة ، فإذا هم يطمعون فى شىء كثير وقالوا : « نحتاج إلى مال خراج هـذه البلاد كلها التى فى أيديكم ، فإنكم إنما جبيتموها لبيت مال المسلمين لنائبة أن تأتيهم ، ولا نائبةَ أعظمُ من طمع الروم والأرمن فينا ، واستيلائهم على ثغورنا ، وضعف المسلمين عن مقاومتهم » ، وسألوا مع ذلك أن يخرج معهم جيش ينضم إليهم ، وأخذوا فى هذا النحو من الكلام ، وتبسطوا فى الاقتراح ورفع الأصوات ، فلما لم تُجبْ مطالبُهم شغبوا ، وعدلوا إلى مسافهة الديلم ، فكانوا يكفّرونهم ويلعنونهم ، وكان ذلك فى شهر رمضان ، فكانوا يخرجون ليلا ، ومعهم آلاتهم من السيوف والحراب والقسىّ والسهام ، ويزعمون أنهم يأمرون بالمعروف ، فيسلبون العامة مناديلهم وعمائمهم ، وإذا تمكنوا من تفتيشهم وأخذ جميع ما معهم لم يقصروا فى ذلك ، وأدى شغبهم إلى وقوع القتال بينهم وبين أهل البلاد ، ثم حجز بينهم الليل ، فرجع الخراسانية إلى معسكرهم يضربون بطبولهم الليل كله ويتواعدون القتال ، فلما أصبحوا باكروا الحرب ، وهجموا على دار الأستاذ ابن العميد ، فكسرهم ، ثم كثروا عليه حتى مضى كل من معه ، ولم يولّ عنهم حتى طعنه أحدهم طعنة دخلت فى كم درعه وأفضت إلى ساعده فجرحته ، واضطر أخيرا إلى أن يرجع إلى دار الإمارة ، واشتغل الخراسانية بنهب داره واصطبلاته وخزائنه إلى أن أتى الليل ، ثم انصرفوا ، فلما رجع الوزير إلى منزله ليلا لم يجد فيه ما يجلس عليه ولا كوزاً واحداً يشرب فيه . ثم استفحل أمر هؤلاء الخراسانية وقويت نفوسهم ، ولكن الوزير وركن الدولة تمكنا من هزيمتهم حتى انصرفوا على سمت قزوين هائمين على وجوههم لا يلوى بعضهم على بعض ، « ولو أنهم خرجوا بالمال الذى كان لهم لبلغوا من الروم كل مبلغ ، ولكن غزاة المسلمين معهم ، ولله أمر هو بالغه »(١) .

* * *

(١) مسكويه ج ٦ ص ٢٨٣ — ٢٩١ ؛ الأصطخرى ص ٢٢٠ (٢) ، Amedroz, Der Is... I. 331 ff.

قيل لعبد الملك بن مروان : أسرع إليك الشيب ، فقال : كيف لا ، وأنا أعرض عقلي في كل جمعة على الناس . وقيل نِعْمَ الشيءُ الإمارة ، لولا قعقعة البريد وصعوبة المنبر[١] . وكان ارتقاء المنبر في كل أسبوع للخطبة في الناس واجباً شاقا على كبار الأمراء أيضا ، وكان فيه تكليف عسير على القواد لأنه يخرج بهم عما اعتادوا من صناعة السيف دون صناعة اللسان والكتب ، ويحكى عن أحد الولاة أنه خطب فذكر أبياتاً للشعراء في الوعظ ، وقدم لها بقوله : قال الله عز وجل في كتابه[٢] . وكان الرشيد أول من جعل الخطيب يخطب بكلام غيره ، ويُحكى أنه استدعى الأصمعي اللغوي لتأديب ولده محمد ، وقال : أريد أن يصلي بالناس إماماً في يوم جمعة ، فاختر له خطبة وحفّظْه إياها ، فحفّظه عشراً ، فخرج وصلى بالناس ، فأعجب الرشيد به[٣] . وكان في هذه المسألة الصغيرة مسألة الخطبة ما يشير في القرن الثالث الهجرى إلى انقطاع العادات الإسلامية التي جرى عليها الإسلام في عهده الأول : فترك الخلفاء والولاةُ الخطبةَ في الجمعة ، وعهدوا بذلك إلى خطباء ندبوا لذلك واختصوا به[٤] . ويحكى عن الخليفة المهتدى (٢٥٥ — ٢٥٦ هـ = ٨٦٦ — ٨٦٧ م) . وكان شديد الورع أنه كان يحضر كل جمعة إلى المسجد الجامع فيخطب الناس ويؤمّ بهم[٥] . وفي عام ٢٧٩ هـ صلى الخليفة المعتمد بالناس صلاة الأضحى ، ولم يُسمع منه خطبة[٦] . ولم يكن الخليفة يخطب إلا في الأعياد . ويحكى عن الخليفة الراضي بالله (٣٤٤ — ٣٦٣ هـ = ٩٤٥ — ٩٧٤ م) أنه لما عزم على

---

(١) محاضرات الأدباء ج ١ ص ٨٣ . (٢) الإرشاد لياقوت ج ٦ ص ٩٤ .

(٣) الفرج بعد الشدة للتنوخي ج ٢ ص ٢٠ — ٢١ .

(٤) وكان جهل كثير من الولاة باللغة العربية سببا في تخليهم عن هذا الواجب الديني ، ويحكى أن عنبسة بن إسحاق الضبي الذي ولي حكم مصر عام ٢٣٨ هـ كان آخر من وليها من العرب ، وآخر أمير صلى بالناس في المسجد الجامع (الولاة للكندي ص ٢٠٢) .

(٥) مروج الذهب للمسعودي ج ٨ ص ٢ .

(٦) تاريخ أبي المحاسن (طبعة ليدن) ج ٢ ص ٩٧ .

الصلاة بالناس فى عيد الفطر لم يعرف مايقوله إذا انتهى فى الخطبة إلى الدعاء لنفسه ، فأرسل فى ليلة العيد إلى أحد العلماء بذلك ، فاختار له دعاء[1] . وقد رُويت لنا الخطبة التى قالها الخليفة الطائع فى عيد الأضحى سنة ٣٦٣ هـ ؛ وكانت خطبة قصيرة أشار فيها بكلمة أو بكلمتين إلى مسألة إبراهيم و إسماعيل عليهما السلام ، وكانت : « الله أكبر الله أكبر ، لا إله إلا الله والله أكبر ، متقربا إليه ، ومعتمداً عليه ، ومتوسلا بأكرم الخلائق لديه ، الذى صيّرنى إماماً منصوصاً عليه ، ووهب لى أحسن الطاعة فيما فوضه إلىّ من الخلافة على الأمة ، الله أكبر الله أكبر ، مُقِرا بجميل آلائه فيما أسنده إلىّ من حفظ الأمم وأموالها وذراريها ، وقمع بى الأعداء فى حضرها و بواديها ، وجعلنى خير مستخلَف على الأرض ومن فيها ، الله أكبر الله أكبر تقربا بنحر البدن التى جعلها من شعائره وذكرها فى محكم كتابه وأتباعاً لسنة نبيه وخليله صلى الله عليه فى [. . . . .][2] أبينا إسماعيل وقد أمر بذبحه فاستسلم لإهراق دمه وسفحه غير جزِع فيما نابه ولا نـكل عما أمر به ، فتقربوا إلى الله فى هذا اليوم العظيم بالذبائح فإنها من تقوى القلوب ، الله أكبر الله أكبر ، وصلى الله على محمد خيرته من خليقتـه وعلى أهل بيته وعترته وعلى آبائى الخلفاء النجباء ، وأيّدنى بالتوفيق فيما أتولى ، وسدّدنى من الخلافة فيما أعطى . وأنا اخوفكم معشر المسلمين غرور الدنيا فلا تركنوا إلى ما يبيد ويفنى ، ويزول ويبلى ، وإنى أخاف عليكم يوم الوقوف بين يدى الله غدا ، وصُحُفكم تقرأ عليكم ، فمن أوتى كتابه بيمينه فلا يخاف ظلما ولا هضما ، أعاذنا الله وإياكم من الردى ، واستعملنا وإياكم بأعمال أهل التقوى ، وأستغفر الله لى ولكم ولجميع المسلمين »[3]

---

(١) الإرشاد لياقوت ج ٢ ص ٣٤٩ .　　(٢) كلمة غير واضحة فى الأصل .
(٣) المنتظم ص ١٠٦ ب ؛ وختام الخطبة يشبه الختام فى خطب ابن نباته كما سيأتى بعد قليل .

أما الخلفاء الفاطميون فكانوا يعنون عناية كبرى بالمظهر الدينى خاصة ، وكانوا يخطبون فى كل جمعة من مسطور يُحضر إلى الخليفة من ديوان الإنشاء[١] . وكان الخليفة الحاكم بأمر الله مثلا قبل بناء الجامع الحاكمى يخطب فى جامع عمرو جمعة ، وفى جامع ابن طولون جمعة ، وفى الجامع الأزهر جمعة ، ويستريح جمعة ، فلما بُنى الجامع الحاكمى انتقلت الخطبة إليه[٢]

ولم تكن خطبة الجمعة عند المسلمين عظة بالمعنى الأوروبى (Predigt) ؛ بل كانت أشبه بطقس كنسى (ليثرجيا Liturgie)[٣] فيها للخطيب من حرية التصرف مالا يكون له فى بقية مراسم صلاة الجمعة . ولذلك كان لا ينتظر من الخطيب أن يأتى فى كل جمعة بشئ جديد . على أنه يُحكى عن أبى سعيد عبد الواحد بن عبد الكريم بن هوازن المتوفى عام ٤٩٤ هـ — ١١٠١ م خطيب الجامع المنيعى بنيسابور أنه لبث يخطب خمس عشرة سنة ينشئ فى كل جمعة خطبة جديدة « جامعة للفوائد معدودة من القرائد »[٤] . وكان أشهر خطباء القرن الرابع ابن نباتة المتوفى عام ٣٧٤ هـ — ٩٨٤ م خطيب سيف الدولة بحلب ، وديوان خطبه أعظم مظهر تجلى فيه فن الخطابة فى ذلك العهد . وإذا كان فى مأثور الروايات الإسلامية أن النبى محمداً (عليه السلام) كانت خطبه قصيرة ، فأقل مزايا ذلك أنه حفظ الإسلام ، من شئ لا يُحتمل وهو أن يكون دين ثرثرة للمتشدقين ، ويحكى عن عمار بن ياسر أنه تكلم يوماً فأوجز ، فقيل له . لو زِدْتَنا ؛ قال : أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بإطالة الصلاة

---

(١) الخطط المقريزى ج ٢ ص ٢٧٧ ، ٢٨١ .

(٢) حسن المحاضرة للسيوطى ج ١ ص ١٣٨ طبعة مصر ١٣٢٧ هـ .

(٣) الليثرجيا عبارة عن لطمة من الكتاب المقدس تقرأ وتفسر قليلا . (المترجم)

(٤) طبقات الشافعية ج ٣ ص ٢٨٤ .

وقصر الخطبة[١]. ولذلك كانت الخطبة الكبرى عند ابن نباتة لا تزيد عن الخمس دقائق[٢] وتبدأ الخطبة بحمد الله والصلاة على النبي فى إيجاز ، وبعدها يجلس الخطيب لحظة قصيرة ، ثم يقف لإلقاء الخطبة الثانية ، وقصر البرهة بين هاتين الخطبتين مضرب المثل ، قال ابن حديس الشاعر فى ذلك العصر يشكو قصر زمان لقاء الحبيب :

زارت على الخوف من رقيب كظبية رُوِّعت بذيب

إلى أن قال :

كان زمان اللقاء منها أقصر من جلسة الخطيب[٣]

ويختم ابن نباتة خطبه دائما بآيات من القرآن ، ثم يقول فى آخر كل خطبة عبارات ثابتة وهى : بارك الله لنا ولكم فى القرآن العظيم ، ونفعنا وإياكم بالآيات والذكر الحكيم ، وأستغفر الله العظيم لى ولكم ولسائر المسلمين[٤] . وكانت الخطبة الثانية أقصر قليلا مما هى عليه اليوم[٥] . وفى الخطبة الثانية كان من عادة الخطيب أن يحوّل وجهه إلى اليمين و إلى الشمال عند الصلاة على النبى[٦] ، وكان هذا الجزء من الخطبة موضع احتفاء وشعور خاص . وكان للصلاة على النبى شأن كبير حتى

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ ج ١ ص ١١٧ ، ويقول الجاحظ (ج ١ ص ٤٢) إن البلاغة الإيجاز ، والإيجاز أن تجيب فلا تبطئ ، وأن تقول فلا تخطئ .

(٢) على أنى سمعت خطبة بطريرك الأرثوذوكس فى أحد الشعانين عام ١٩٠٢ ، فلم تزد عن عشر دقائق .

(٣) ديوان ابن حديس طبعة رومة سنة ١٨٩٧ ص ٨ — ٩ .

(٤) ديوان خطب ابن نباتة طبع بيروت ١٣١١ هـ ص ٦ .

(٥) تجد خطبتين من الهند ومصر مترجمتين فى قاموس هيوز : Huyhes Dictionary of Islam تحت كلمة خطبة ؛ وانظر كتاب لين Lane, Manness, c. 73 . وتجد خطبة من خطب بلاط الموحدين فى كتاب المراكشى فى تاريخ الموحدين (ص ٢٩٥ وما بعدها من ترجمة فاجنان Fagnan طبعة الجزائر سنة ١٨٩٣ .

(٦) ديوان خطب ابن نباتة ص ٣٢١ — ٣٢٢ .

نجد عند ابن نباتة صوراً مختلفة للصلاة يستطيع الخطيب أن يختار منها ماشاء[1].
وفى وقت الحرب كان الخطيب يدعو للأمير بالنصر بمثل هذا الدعاء : اللهم انصر الأمير فلاناً على أعدائك الكفرة البغاة ، الفجرة الطغاة، الذين صدّوا عن سبيلك ، وكذبوا بتنزيلك ، وآثروا خلاف رسولك ، حتى لايدع منهم فيلقاً إلا أهلكه ، ولا سملقاً إلا سلكه ، ولا دماً إلا سفكه ، ولا هارباً إلا أدركه ، ولا مغلقاً إلا فتحه ودكدكه ، ولا حريماً إلا أباحه وهتكه ، ولا عظيما إلا أهانه وتملكه ، اللهم انصره على أعدائك ، ومكّنه من نواصيهم ، حتى يذلهم و ينزلهم من صياصيهم ، و يؤدى إليه الجزية بالصغار دانيهم وقاصيهم »[2] .

وكان قصر زمان الخطبة لا يمكن الخطيب من تثقيف سامعيه بشرح النصوص كما هو الحال عند المسيحيين فيما يسمى بال Homelie ، وكان للخطبة منذ أول الأمر موضوع واحد لم تحِدْ عنه ، وهو الكلام فى قرب زوال هذا العالم ، وفى ترهيب الناس بالموت والقبر ، وانقضاء الدنيا بمجيء يوم القيامة ؛ وهكذا تسير الخطبة على نمط سريع مثير للعواطف . ولم يكن الخطباء يعنون بالكلام فى شيء من لذات الدنيا وآلامها التافهة ، ومن كانت النار لها وراءه زفير وشهيق فإنه لا يلتفت للأزهار التى يراها فى طريقه ، ويروى عن على بن أبى طالب أنه قال فى إحدى خطبه الحماسية : « القرار القرار ؟ النجاة النجاة ؟ العدو وراءكم جاد فى طلبكم يسعى حثيثاً ليدرككم[1] . فأما وصف نعيم الجنة وعذاب النار فكان قليلا بالنسبة لما كان الخطباء فيه . وإنما تركزت بلاغتهم فى وصف يوم الصاخّة التى تجيء مروّعة ، فيزول بمجيئها هذا العالم وتنتهى الحياة الدنيا . وكان جديراً بقوم كانوا

(١) ديوان خطب ابن نباتة ص ٣٢١ — ٣٢٢ .
(٢) هذه ترجمة لكلام المؤلف وهو لم يعثر إلى النص العربى . (المترجم)

يعيشون فى ذلك العصر أقرب إلى الحس السليم وإلى السذاجة والفهم المستقيم أن ينَبّهوا إلى التفكير فى نهايتهم .

جاء فى خطبة من خطب ابن نباتة : « أيها الناس: قلقلوا القلوب عن مراقدها ، وأعدلوا بالنفوس عن موارد شهواتها ، وذللوا جوامحها بذكر هجوم مماتها ، وتخيلوا فضائحها يوم تعرف بسماتها ، وترقبوا داعياً من جو السماء تنشر به الرمم ، وتحشر له الأمم ، وتزول معه التهم ، ويطول عنده الأسقام والندم ، ياله داعياً أسمع العظام البالية ، ومناديا جمع الأجسام المتلاشية ، من حواصل الطيور ، وبطون السباع ، وقرار البحور ، ومتون البقاع ، حتى استقام كل عضو فى موضعه ، وقام كل شلو من مصرعه ، فنهضتم أيها الناس لميقات الكرة ، بوجوه من هبوات الثرى مغبرة ، وألوان من هول ما ترى مصفرة ، حفاة عراة كما بدأكم أول مرة ، يسمعكم الداعى وينفذكم البصر ، قد ألجمكم العرق وغشيكم القتر ، ومادت الأرض فهى بما عليها ترجف ، وبُست الجبال فهى برياح القيامة تنسف ، وشخصت الأبصار فما تُرى عين تطرف ، وغص بأهل السماء والأرض الموقف ، فبينا الخلائق يتوكفون حقيقة أنبائها وقوفا ، والملك على أرجائها صفوفا ، إذ أحاطت بهم ظلمات ذات شعب ، وغشيهم منها شواظ نحاس ولهب ، وسمعوا لها جرجرة زفير مصطخب ، يفصح عن شدة تغيظ وغضب ، فعند ذلك جثا القائمون على الركب ، وأيقن المجرمون بالعطب ، وأشفق البرآء من سوء المنقلب ، وأطرق النبآء لسلطان الرهب ، ونودى أين عبد الله وأين أمته ؟ أين المسوف نفسه بخديعته ؟ أين المختطف بالموت على حين غرته ؟ فعرف من بين الخلائق بسمته ، وأحضر لتصفح صحيفته ، وللموافقة على ما أسلف فى مدته ، مطالبا بإقامة حجته ، مروّعاً بين يدى عالم خفيته ، بوهم خطاب كالصواعق ، ولذع عتاب كالمقامع ، وشهادة كتاب للفضائح جامع ، وصحة حساب للمعاذير قاطع ، فخاب والله من كان على نفسه مسرفاً ، ولم يجد من خطائه منيلا ولا مسعفاً ، بل وجد

الحاكم له وعليه عدلا منصفاً ، « ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ، ولم يجدوا عنها مصرفاً » . عدل الله بنا وبكم إلى سبيل السلامة ، وحل عنا وعنكم أعباء الظلامة ، وجعل الإخلاص بتوحيده نوراً لنا فى ظلمات القيامة . إن أغزر ينابيع الحكم ، وأنور مصابيح الظلم ، كلام بارئ النسم « فإذا نفخ فى الصور نفخة واحدة ، وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ، فيومئذ وقعت الواقعة ، وانشقت السماء فهى يومئذ واهية ، والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ، يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية »[1] .

وقليلا ما كان الخطباء يتعرضون للكلام فى الجنة أو فى موضوع كثيراً ما يتكلم فيه المسيحيون ، وهو اللقاء بعد الموت ، ولعل الخوف من يوم النشور ، ومن أهوال يوم الحساب كان أقوى من أن يسمح بالكلام فى ذلك ؛ ويحكى عن إحدى شهيرات نساء العرب أنها قالت : إنى أشتاق ليوم البعث لأرى وجه زوجى ؛ فكان قولها مثلا مدهشا يضرب لبيان قوة الحب الذى لا يرهب أشد الأهوال[2] .

وقد ألف ابن نباتة كل خطبه سجعا ، كأن جلها توقيع موسيقى . وهذا السجع فى الخطب هو أيضا من المستحدثات التى ظهرت حوالى منتصف القرن الثالث الهجرى ، وبلغت منتهى ازدهارها فى القرن الرابع[3] ويحكى ابن خلكان من مناقب الخطباء المتأخرين وهو شيخ الإسلام العز بن عبد السلام أنه ترك السجع فى خطبه حين ولى الخطابة رجوعا إلى طريقة السلف[4] . على أنه فيما يتعلق بالخطب وضعت فى القرن الرابع صورة الخطب وقوانينها[5] ، وإذا كانت

---

(١) ابن نباتة ص ٦٩ — ٧٢ . (٢) تحفة العروس مثلا ص ١٦٢ .

(٣) انظر باب الأدب من الجزء الأول .

(٤) مقدمة كتاب ديوان الخطب لابن نباتة ص ١٩ .

(٥) وقد حفظ لنا أبو الهلال العسكرى فى كتابه سيف الخطابة بقية من طريقة القدماء فى سيف الخطب . يشتمل هذا الكتاب على خطب السنة : فيه خطب الجمع والعيدين والخسوف =

« خطب المسيحيين البلاغيـة التى تلقى فى أيام الأعياد الكبرى ليست إلا أناشيد منثورة »[١] فهذا ينطبق أيضاً على الخطب الإسلامية فى القرن الرابع تمام الانطباق ، وإن بين هـذه الخطب المسجوعة التى كتبها القدماء شبهاً كبيراً جدا بحيث لا يستطيع أحد أن ينكر تأثير خطب المسيحيين فى المسلمين . ويحتوى ديوان ابن نباتة من خطب الأعياد على خطب تقال فى رأس السنة ، وفى يوم وفاة النبى عليه السلام ، وفى شهرى رجب ورمضان ، وفى عيد الفطر . وكانت الخطب الجهادية ثمرة من ثمرات أيام سيف الدولة بما كان فيها من حروب ، وهى لا تقل روعة عن أجود الخطب الجهادية التى أثرت عن القدماء[٢] .

أما فيما يتعلق بملابس الخطباء فلم تكن الحكومة تُعنى إلا بتعيين اللون الذى عليهم أن يتخذوه ، فحيث كان يُخطب لبنى العباس كان الخطباء يتخذون السواد الذى هو اللون الرسمى للعباسيين ؛ وحيث كان يُخطب للفاطميين كان الخطباء يتخذون اللون الأبيض . ونظراً لعدم وجود هيئة من الأكليروس وعدم وجود لباس دينى خاص فقد كان الخطباء فيما عدا ما تقدم يتبعون عرف الناحية التى هم فيها ، ففى العراق وفى خوزستان كان الخطباء يظهرون بالملابس الحربى فيلبسون الأقبية والمناطق[٣] ؛ على حين أنهم فى خراسان كانوا لا يتردّون ولا

= والكوف والاستسقاء وعقد النكاح ، وهى مؤلفة على حروف من حروف المعجم ، فيها خطب عمادها الهمزة ، وخطب بنيت على الباء وعلى الدال وعلى الراء وعلى اللام والميم والنون ، وتركت الجيم والحاء وما يجرى مجراهما لأن الكلام المقول فى الجماعات ينبغى أن يكون سهلا » (الإرشاد لياقوت ج ١ ص ١٨٢) .

(١) Norden, Die Antike Kunstprosa, II. s. 844.

(٢) يقول أبو المحاسن (ج ٢ ص ٣٤٩) إن ابن نباتة عمل الخطب الجهادية لما وصل الروم إلى طرسوس وكروا إلى ديار بكر ، ووصلوا ميافارقين ، وقتلوا وخربوا ، وذلك عام ٣٤٨ هـ .

(٣) المقدسى ص ١٢٩ ، ٤١٦ .

يتقبّون ، وإنما يكتفون بلبس درّاعة[1] . وفى عام ٤٠١ هـ — ١٠١٠ م خطب بالموصل خطيبٌ للحاكم بأمر الله ، فظهر وعليه قباء دبيقى أبيض — واعتبر هذا كافياً من الناحية الرسمية — وعمامة صفراء وسراويل ديباج أحمر وخفين أحمرين ، وقد تقلد سيفاً[2] .

وفى البصرة وحدها ، وهى مدينة الصالحين ومدّعى الصلاح فى العراق ، كان الخطيب الرسمى يخطب فى كل صباح ؛ وقيل إن هذه كانت عادة ابن عباس ، وفيما عدا البصرة كان الخطيب الرسمى يخطب يوم الجمعة فقط ، ويترك بقية الأسبوع للخطباء المتطوعين الذين كانوا منذ العصور الأولى يتزاحمون على ذلك ، وكانوا يُسمّون القُصّاص . وقد كتب جولدزيهر تاريخاً لهم[3] وأجاد المقريزى[4] فى جمع الكثير من أخبارهم باختصار ، وهو يقول إن القصص لم يكن فى أيام الرسول ولا فى زمن الخلفاء الراشدين ، وإنما حدث فى زمن معاوية ، وقيل فى خلافة عثمان . ويحكى المقريزى عن الليث بن سعد أن القصص قصصان : قصص العامة ، وقصص الخاصة ، فأما قصص العامة فهو الذى يجتمع إليه النفر من الناس للقاصّ يعظهم ويذكرهم ، وذلك مكروه لمن فعله ولمن استمعه ؛ وأما قصص الخاصة فهو الذى جعله معاوية إذ ولّى رجلا على القصص فكان إذا سلم من صلاة الصبح

---

(١) نفس المصدر ص ٣٢٧ .

(٢) النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى طبعة كلفورنيا ص ١٠٧ .

(٣) Muham. Studien, II, 161 ff. ؛ ومن أمثلة التندر بطريقة هؤلاء القصاص ما جاء فى كتاب الأغانى (ج ٣ ص ٣٠) من أن بشار بن برد الشاعر الأعمى الذى عاش فى عهد الخلفاء الأولين من بنى العباس مر بقاص بالمدينة ، فسمعه يقول فى قصصه من صام رجب وشعبان ورمضان بنى الله له قصراً فى الجنة صحنه ألف فرسخ فى مثلها ، وعلوه ألف فرسخ ، وكل باب من أبواب بيوته ومقاصيره عشرة فراسخ فى مثلها . (قال) : فالتفت بشار إلى قائده فقال : بئست والله الدار هذه فى كانون الثانى .

(٤) الخطط ج ٢ ص ٢٥٣ .

جلس وذكر الله عز وجل وحمده ومجّده وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، ودعا للخليفة ولأهل ولايته ولجنده وجنوده ، ودعا على أهل حربه وعلى المشركين كافة[١] . وكان القاص بعد صلاة الجمعة يقرأ القرآن ويفسّره ، وكان القاضي هو الذي يتولى القصص في أول الأمر ، ولا يُذكر وجود هذا المنصب إلا في مصر ، ولعله كان من قبل من أنظمة الكنيسة المصرية[٢] . على أنه ولي قضاء مصر في عام ٢٠٤ هـ إبراهيم بن إسحاق القاريّ ، وجُمع له القضاء والقصص[٣] . وبعد ذلك بطل نظام الجمع بين المنصبين ، وارتفع شأن منصب القضاء ، وانحطّ منصب القاص . وفي عام ٣٠١ هـ أراد أبو بكر اللطي الذي تولى القصص في هذه السنة أن يقرأ القرآن ويقص في كل يوم ، فمنع القاضي من ذلك ، فرجع القاص إلى القراءة في ثلاثة أيام[٤] . أما في المشرق في عصر المأمون فقد ذكر طيفور أن قصص القصاص وإيواءهم إلى جانب بناء المساجد وجمع اليتامى والإنفاق على الجهاد من أعمال البرّ التي اتخذها البعض على سبيل الرياء[٥] . أما المغرب فيحدثنا المقدسي أنه كان قليل القصاص[٦] . ويُروى عن مالك بن أنس صاحب المذهب السائد في المغرب أنه كان يكره القصص[٧] . وفي القرن الرابع نزل القصاص إلى

---

(١) الخطط للمقريزي ج ٢ ص ٢٥٣ .

(٢) نفس المصدر . وفي عام ٧٠ هـ ولي قضاء مصر عبد الرحمن بن حجيرة ، وكان له إلى جانب القضاء القصص وبيت المال ، وكان رزقه من كل هذه المناصب الثلاثة مائتي دينار (الكندي ص ٣١٧) .

(٣) الكندي ص ٤٢٧ .

(٤) الخطط للمقريزي ج ٢ ص ٢٥٤ .

(٥) كتاب بغداد لطيفور طبعة كلر Celler ص ١٠٠ . ويقول الجاحظ (البيان ج ١ ص ٤١) إن من تمام آلة القصص أن يكون القاص أعمى ويكون شيخاً بعيد مدى الصوت .

(٦) المقدسي ص ٢٣٦ .

(٧) المدخل لابن الحاج ج ٢ ص ٢١ وما بعدها .

سمار العامة وصاروا يقصون لهم القصص الدينية والأساطير والنوادر فى المساجد والطرق ، وينالون منهم مالا كثيراً . وكان يجتمع إليهم الرجال والنساء ، فيرفعون أصواتهم بالدعاء ويمدون أيديهم[١] . وكان العامة يحبون القصاص حبا شديداً ، ويحكى عن الطبرى أنه أنكر على قاص ببغداد ، فرمى العامةُ باب داره بالحجارة حتى سدّوه وصعب الخروج منه[٢] . وكان القصاص فى أواخر القرن الرابع أكبر مثيرى الفتن القديمة بين أهل السنة والشيعة[٣] .

وحوالى ذلك العصر فقد القصاصُ كلّ ثقة من جانب أهل التقى والصلاح ، وبدأت الثقة تتحول عنهم إلى طائفة خلفتهم ، وهى طائفة المذكرين ، ويسمى مجلسهم مجلس الذكر[٤] . وقد نشأ مجلس الذكر من تعود بعض الصالحين للتسبيح متنفلين بعد انقضاء الصلاة[٥] . وكان الصوفية يسمون خطباءهم بهذا الاسم ، المذكرين[٦] . ويرجع إلى عصر التنافس بين المذكرين والقصاص ما قاله أبو طالب المكى من أن حضور الرجل مجالس الذكر أفضل من صلاته ، وصلاته أفضل من حضور مجالس القصاص[٧] . وقد فرق البعض بين طوائف المتكلمين

---

(١) قوت القلوب لأبى طالب المكى ج ١ ص ١٤٩ . ويحكى عن أحد القصاص أنه كان يقص على الناس بطرسوس فأدركته روعة مما كان يصف من جلال الله وعظمته وبأسه وسطوته فخر مغشيا عليه ومات عام ٣٣٥ هـ — ٩٤٦ م (طبقات السبكى ج ٢ ص ١٠٣) .

(٢) Goldziher, Muh. Studien, II, s. 166 .

(٣) المنتظم لابن الجوزى ص ١٥٢ ب .

(٤) المقدسى ص ١٨٢ . وأقدم نص وجدته ورد فيه لفظ المذكر هو قصيدة حصار بغداد فى عهد الأمين (١٩٨ هـ — ٨١٣ م) للشاعر الأعمى المعروف بعلى بن أبى طالب — مروج الذهب للمسعودى ج ٦ ص ٤٤٨ .

(٥) المقدسى ص ١٨٢ .

(٦) كشف المحجوب ص ٢٣٥ .

(٧) المدخل لابن الحاج ، ج٢ ص ٢٣ ؛ ولم أستطع أن أجد هذه الكلمة فى قوت القلوب .

فيحكى أبو طالب المكى : « وقد قسم بعض العلماء المتكلمين ثلاثة أقسام فوصفهم بأماكنهم فقال : المتكلمون ثلاثة : أصحاب الكراسى وهم القصاص ، وأصحاب الأساطين وهم المفتون ، وأصحاب الزوايا أهل المعرفة ، فمجالس أهل العلم بالله تعالى وأهل التوحيد والمعرفة هى مجالس الذكر »[1] . وقد أتعب الذكر نفسه فى أن يظهر بمظهر يكسبه من التقدير ما يزيد على سلفه القاص ، وأكبر مظهر لذلك أنه كان لا يتكلم ارتجالا ومن غير تقيد ، بل كان يقرأ من دفتر[2] . وفى أيامنا هذه نجد القاص فى بغداد يروى قصص الأبطال بأن يقرأها من كتاب صغير معه ، على حين أن الأخبارى اليهودى يروى حكاياته من غير دفتر ، وكان الأول ينظر إلى الثانى نظرة الاحتقار ، وقد بين السمرقندى (المتوفى عام ٣٧٥ هـ) ما ينبغى أن يكون عليه الذكر ومن يستمع إلى حديثه ، فأول ما يحتاج إليه أن يكون صالحاً فى نفسه وَرِعاً ؛ وأن يكون متواضعاً ، ولا يكون متكبراً ولا نظّاً غليظاً ، وأن يكون عالماً بتفسير القرآن والأخبار وأقاويل الفقهاء ، لا يحدّث الناس إلا بما صح عنده ، وينبغى ألا يكون طماعاً ؛ ولو أهدى إليه إنسان من غير مسألة فلا بأس أن يقبل هديته . وينبغى أن يكون فى مجلسه الخوف والرجاء ، ولا يجعله كله خوفاً ولا كله رجاء ، فإن كان الذكر يحتاج إلى تطويل المجلس نُستحب له أن يجعل فى خلال مجلسه كلاماً يستظرفه السامعون ، ويتبسمون له ، فإن ذلك يزيدهم نشاطاً وإقبالا على السماع ، ومن آداب المستمعين أن يقولوا للذكر عند فصل كل حديث صدقت أو أحسنت ، حتى يكون الذكر راغباً فى الحديث ؛ ويصلى عند سماع اسم محمد صلى الله عليه وسلم كلما ذُكر ، وأن ينزع وسواس الشيطان

---

(١) قوت القلوب للمكى المتوفى عام ٣٨٦ هـ — ٩٩٦ م ج ١ ص ١٥٢ .

(٢) المقدسى ص ١٨٢ ، ٣٢٧ .

عن قلوبهم ، ولا ينام فى حال المجلس[١] ، وكان المجلس ينتهى بأن يأمر المذكر سامعيه بالقيام ، فيقوموا ، وهو معهم ، ويأخذون فى الدعاء[٢] .

وكان أصحاب المجموعات الفقهية التى ألفت فى القرن الثالث الهجرى لا يجهلون ما كان يُقال من أنواع الذكر الذى هو عبارة عن تكرير لفظ من ألفاظ الدعاء ؛ ولكنهم لم يعلِّقوا على ذلك أية قيمة . ويُروى عن النبى (عليه السلام) أنه أوصى بأن يسبِّحَ المصلِّى بعد الصلاة ثلاثاً وثلاثين ، ويحمِّدَ ثلاثاً وثلاثين ، ويكبِّرَ ثلاثاً وثلاثين[٣] وفى القرن الثانى الهجرى قال الأصمعى لخلف الأحمر : أما ترى ما جاء به ابن داب من الحجاز والشوكرى من الكوفة ؛ فأجاب بما يحط من قدر علمهما ، بأن قال : إنما يروى لهؤلاء من يقول : قالت ستى ، ويدعو ربه من دفتر ، ويسبِّح بالحصى ، ويحلف بحياة المصحف ، ويدع حدَّثنا وأخبرنا ، ويقول : أكلنا وشربنا[٤] . وقد وصف الدارمى المتوفى عام ٢٥٥ هـ — ٨٦٩ م فى سننه قوماً كانوا يقعدون فى المسجد على هيئة حلقات ينتظرون صلاة الصبح وفى أيديهم حصى صغير ، وكان لكل حلقة إمام يقول لهم : قولوا الله أكبر مائة مرة ، ثم سبحان الله مائة مرة ، وكانوا يعدون ذلك بالحصى الذى فى أيديهم ، فمر بهم شيخ ، فقال لهم : أولى بكم أن تعدوا ذنوبكم[٥] . وقد بقى الذكر فى أثناء القرن الثالث الهجرى كله يعتبر قليل القيمة ، وينـدر أن نجد له ذكراً فى كتب العلماء فى ذلك القرن ، فلما جاء القرن الرا فصل الذكر عن الدعاء

---

(١) بستان العارفين على هامش تنبيه الغافلين للسمرقندى ص ٢٥ وما بعدها .

(٢) المنتظم لابن الجوزى ص ٨٩ ب . (٣) البخارى : باب الذكر .

(٤) الإرشاد لياقوت ج ٦ ص ١٠٩ .

(٥) سنن الدارمى طبعة كونبور ١٢٩٣ هـ ص ٣٨ ، كما نقل ذلك جولدزيهر فى مجلة تاريخ الأديان R H R عام ١٨٩٠ ص ٢٩٩ .

الذى يقال اختياراً لغرض معين ، وصار يقصد به الدعاء القصير المتكرر على هيئة ورد ، والتحية ، وما يقال عند الطعام وفى الصباح والمساء ، وما اعتاده المسلمون من كثرة ذكر الله فى أثناء عملهم اليومى[1] ؛ وجُعل لهذا العمل الدينى شأن كبير ، ورُوى عن النبى عليه السلام أنه قال : « من دخل السوق فقال لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، يحيى ويميت ، وهو حى لا يموت بيده الخير ، وهو على شىء قدير ، كتب الله له ألف ألف حسنة ، ومحا عنه ألف ألف سيئة ، ورفع له ألف ألف درجة[2] » ، ويحكى عن أبى زرعة محمد بن عثمان الدمشقى قاضى مصر المتوفى عام ٣٠٢ هـ — ٩١٤ م أنه أهدى إلى خارويه رغيفاً ختم عليه عشر ختمات وعشرة آلاف قل هو الله أحد فقبله خارويه وتبرك به[3] . ويحكى عن عالم كان نزيل مكة وتوفى عام ٤٢٥ هـ — ١٠٣٤ م أنه كان يقرأ فى كل أسبوع ستة آلاف قل هو الله أحد[4] .

وكان أبو الحسن البوشنجى المتوفى عام ٤٦٧ هـ — ١٠٧٤ م فقيها زاهداً ورعاً صوفيا ، ويحكى أنه كانت لا تسكن شفتاه من ذكر الله عز وجل ، وجاءه مزين مرة ليقص شاربه فقال له : أيها الإمام يجب أن تسكّن شفتيك ، فقال : قل للزمان حتى يسكن[5] . ويحكى عن أحد العلماء الصالحين أنه بعد أن مات رآه رجل فى المنام ، وهو واقف فى المحراب ، وعليه حلة ، وعلى رأسه تاج مكلل ؛ فقال له : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لى وأكرمنى وتوّجنى ، وأدخلنى

---

(١) يضع صاحب العقد الفريد — وهو يمثل آراء القرن الثالث الهجرى — أمثال هذه العادات الدينية الصغيرة فى باب الدعاء (العقد ج ١ ص ٣٢٢) ، على حين أن السرقندى يعقد بابا خاصا للذكر . (٢) تنبيه الغافلين للسرقندى ص ٢٠١ ، ٢٥٥ .

(٣) ملحق الكندى ص ٥١٩ نقلا عن ابن زولاق المتوفى عام ٣٨٦ هـ — ٩٩٦ م .

(٤) طبقات السبكى ج ٣ ص ٨٥ .

(٥) نفس المصدر ج ٣ ص ٢٢٨ .

الجنة ؛ فقال له الرجل : بماذا ؟ قال : بكثرة صلاتى على رسول الله صلى الله عليه وسلم[١] . وذكر القشيرى فى رسالته[٢] بإسناد عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : لا تقوم الساعة على أحد يقول : الله الله ؛ أو أنه قال : لا تقوم الساعة حتى لا يقال فى الأرض الله الله . وكان لعبد الله بن عباس خمسمائة أصل زيتون يصلى فى كل يوم إلى كل أصل ركعتين ، فكان يدعى ذا الثفنات[٣] ، على أنه حل محل الحصى أو مثل هذه الطريقة فى إحصاء العبادات شىء جاء من المشرق وهو السبحة ؛ وأول إشارة تدل على استعمالها من حيث التاريخ ما جاء فى قصيدة لأبى نواس ، وهو فى السجن فى عهد الخليفة الأمين (١٩٣ — ١٩٨ هـ = ٨٠ — ٨١٣ م) ، وفى هذه القصيدة يخاطب أبو نواس الوزير ابن الربيع بقوله :

أنت يا ابن الربيع ألزمتنى النسك وعوّدتنيه والخير عاده
فارعوى باطلى وأقصر حبلى وتبدلت عفة وزهاده
المسابيح فى ذراعى والمصحف فى لبّتى مكان القلاده[٤]

وكان حظ السبحة من قلة التقدير من جانب العلماء والصالحين فى القرن الثالث الهجرى أقل من حظ الذكر نفسه ، فكانت لا ترى إلا فى أيدى النساء أو مدّعى الصلاح ؛ وقد رأى أحد الصوفية فى يد الجنيد سيد الصوفية المتوفى عام ٢٩٧ هـ — ٩٠٩م سبحة فقال له : أنت مع شرفك تأخذ بيدك سبحة ![٥] ،

---

(١) ابن بشكوال ج ١ ص ١٣٤ . (٢) الرسالة ص ١٠١ باب الذكر .
(٣) الكامل للمبرد طبعة مصر ١٣٠٨ هـ ص ٣٦٧ من الجزء الأول .
(٤) ديوان أبى نواس طبعة مصر ١٨٩٨ م ص ١٠٨ .
(٥) رسالة القشيرى ص ١٩ ، ومقال جولدزيهر فى مجلة تاريخ الأديان ، ومجلة جمعية المستشرقين الألمان Goldziher, R H R, 1890 s. 295 ff; Z D M G, 50, s. 488. ، ومطالع البدور للغزولى ج ٢ ص ٦٦ ؟

على أن السبحة تذكر باعتبارها من أخص أهبة النساء الصوفيات فى القرن الخامس الهجرى[١] .

وكان من أشد الخطب الدينية قوة وتأثيرا بين المسلمين المواعظ التى كان يتطوع للقيام بها أهل الفصاحة واللسن ، علماء كانوا أو غير علماء ، مقبلين على ذلك إقبالا شديداً ، وكانت عادة هؤلاء أن يجلسوا لوعظ الناس فى أيام الصوم من رمضان وفى أيام الجمع بعد تأدية الصلاة ، وهذه هى العادة الجارية اليوم فى مصر على الأقل[٢] . وكان من عادة الكثيرين من الكبراء أن يستدعى أحدهم واعظاً مشهوراً ويقول له : عِظنى أو خوِّفنى[٣] . وكثيراً ما كانوا يسمعون منهم ما لا يحبون ولا يتوقعون من غليظ القول . أما عامة المدن بما كان لهم من تذوُّق للفن البلاغى ، فقد كان للواعظ بينهم قدرة على جذبهم لدرجة تخرج عن مألوف العادة ، وكان للوعاظ فى الاحتفالات الحربية والدينية والأعياد نصيب إلى جانب المكدين والمخرِّقين والشعراء فى العمل على تغذية خيال العامة المتعطش . وكثيراً ما لحقتهم مفاسد هذه المهمة ، فاتخذوا منها وسيلة للكسب ، وإن كان العصر الذى نتكلم عنه لم ينطبق عليه بعد ما قاله الجوبرى عن الوعاظ من أن صناعتهم « أعلى مرتبة بنى ساسان »[٤] . على أنه كان فى القرن الرابع من العلماء الصالحين من يكره الجلوس للعظة[٥] ، وكانوا مُحقِّين فى ذلك ؛ فإن كبار

---

(١) طبقات السبكى ج ٣ ص ٩١ .

(٢) حاضر المصريين لمحمد عمر طبعة القاهرة عام ١٣٢٠ ص ١٠٣ .

(٣) يجد القارئ بعض هذه الحكايات فى الجزء الأول من العقد الفريد طبعة مصر ١٣٠٢ هـ ص ٣٥٦ . ويقول مرجليوث (فى تعليقه على الترجمة الإنجليزية) إن السبحة ذكرت فى بيت لبشار ، (الكامل ج ٢ ص ٨٠) .

(٤) كشف الأسرار مخطوط ثينا رقم ١٥٤ ص ١٧ ب .

(٥) بستان العارفين للسمرقندى ص ٢٢ .

الوعاظ كانوا بطبعهم أصحاب صناعة ، ولما كانوا خطباء مفوّهين فقد كانوا أيضاً يحبون أبهى عادات عصرهم والظهور بأحسن مظاهره .

وكان أشهر واعظ ببغداد فى القرن الرابع هو أبو الحسين بن سمعون (٣٠٠ ٣٨٧ هـ = ٩١٢ — ٩٩٧ م) ، وكان من عادته أن يلبس أحسن الثياب ويأكل أطيب الطعام ، فقال له رجل : كيف هذا وأنت تدعو الناس إلى الزهد فى الدنيا والترك لها ؟ فأجابه : كل ما يصلحك لله فافعله ؛ إذا صلح حالك مع الله فالبس ليّن الثياب وكل أطيب الطعام ، فلا يضرك[1] . ويحكى الصاحب بن عباد فى كتاب الروزنامجة أنه رآه وسمعه ببغداد ، « وقد لبس فوطة قصب وقعد على كرسى ساج بوجه حسن ولفظ عذب »[2] . ولما دخل عضد الدولة بغداد وكان أهلها قد هلكوا قتلا وحرقاً وجوعاً للفتن التى اتصلت فيها بين الشيعة والسنة ، أمر بمنع القصاص من القصص لأنهم كانوا يحرضون الناس على القتال والنهب . ولكن ابن سمعون لم يخضع لهذا الأمر ، فجلس على كرسيه يوم الجمعة وتكلم فى الناس ، فأمر عضدُ الدولة بإحضاره بين يديه ، فأحضره شكرُ المعتضدى ، وخشى عليه من مكروه يحل به من عضد الدولة ، وأوصاه أن يقبّل التراب ويتلطّف فى الجواب ، وأن يسلّم بخشوع وخضوع ، ودخل ليستأذن له من عضد الدولة ، فإذا هو إلى جانبه أمام الملك ، وقد حوّل وجهه نحو دار بختيار ، واستفتح فقرأ : بسم الله الرحمن الرحيم ، وكذلك أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شديد . ثم حوّل وجهه نحو الملك ، وقرأ : بسم الله الرحمن الرحيم ، ثم جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فى الأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِم لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ . وأخذ فى وعظه ، فأتى بالعجب حتى

(١) حكى ابن سمعون نفسه أن جده إسماعيل سماه سمعون بكسر السين ، انظر تاريخ بغداد مخطوط باريس ص ٨٥ أ وما بعدها .

(٢) الإرشاد لياقوت ج ٢ ص ٣١٩ .

دمعت عينُ الملك على شدة تجبُّره وسطوته ، وما رؤى منه ذلك قط . ثم أراد الملكُ أن يمتحنه فأرسل إليه مالا وثياباً وعزم إنْ أخذها ليَقْتُلَنَّهُ ، فردّها ، ولم يَرْضَ أن يأخذها حتى لأصحابه ، وقال : أصحاب السلطان أفقر إلى هذا من أصحابي . وعرف السلطانُ الخبر فقال : الحمد لله الذي سلّمه منا وسلّمنا منه[1] . وكانت تقع له الكرامات ، فشفي بنتاً عرجاء بأن مشى على رجلها ، وكان يكشف له عن أحوال الجالسين ، ويحكى أن رجلا نام وهو في مجلس الوعظ ، فأمسك ابن سمعون عن الكلام ساعة حتى استيقظ الرجل ورفع رأسه ، فقال له ابن سمعون : « رأيتَ رسول الله صلى الله عليه وسلم في نومك ، قال : نعم ، فقال أبو الحسين : لذلك أمسكْتُ عن الكلام خوفاً أن تنزعج وتنقطع عما كنت فيه »[2] . وبلغَ الخليفة الطائع أن ابن سمعون ينتقص عليّ بن أبي طالب ، فأحب أن يتيقّن ، وأرسل إليه ، وهو على صفة من الغضب ، وكان يُتّقى في تلك الحال ، لأنه كان ذا حدّة ، فلما مثل ابن سمعون بين يديه كان أول ما افتتح به كلامه أن ذكر علي بن أبي طالب وروى عنه أخباراً وأحاديث ، وأعاد وبدأ في ذلك ، ولم يزل يجري في ميدان الوعظ حتى بكى الخليفة الطائع وسُمع شهيقُه ، وابتل منديل بين يديه بالدموع ، فأمسك ابن سمعون ، فعلم الخليفة أن الواعظ وُفّق إلى ما تزول به عنه الظنّةُ ، وخطر له أنه كوشف بما أرسل إليه من أجله ، وأعطاه درجاً فيه طيب وغيره[3] . وكان أكبر واعظ قبل ابن سمعون بنصف قرن أبا الحسن علي بن محمد الواعظ الملقب بالمصري ، لأنه أقام بمصر مدة طويلة ، والمتوفى عام ٣٣٨هـ — ٩٤٩م ، وكان يحضر مجلس وعظه رجال ونساء ؛ فكان يجعل على وجهه برقعاً خوفاً أن يفتتن

---

(١) المنتظم ص ١١٢ ب .
(٢) نفس المصدر ص ١٤١ أ (٢) ؛ وتاريخ بغداد مخطوط بباريس ص ٨٥ ب .
(٣) تاريخ بغداد ص ٨٥ ب — ٨٦ أ .

به النساء لحسن وجهه[١] . وكان من الوعاظ أيضاً أبو عبد الله محمد بن أحمد الواعظ الشيرازى المتوفى عام ٤٤٩ هـ — ١٠٤٧ ، قدم بغداد يتكلم بلسان الوعظ والزهد ، ويلبس المرقعة ، فافتتن الناس به لما رأوا من حسن طريقته ، وعمر مسجداً كان خراباً ، فسكنه ، ومعه جماعة من الفقراء . ثم نزع المرقعة ، ولبس الثياب الناعمة الفاخرة ، بعد أن حصل له المال الكثير ، وكثر أتباعه ، فأظهر أنه يريد الغزو ، فحشد الناس إليه ، وصار له من الأتباع عسكر كثير ، وصار إلى ناحية أذربيجان ، فاجتمع له بها جمعٌ حتى ضاهى أمير تلك الناحية[٢] . بل يذكر لنا من أخبار القرن الرابع ظهور واعظة وهى ميمونة بنت ساقولة الواعظة البغدادية المتوفاة عام ٣٩٣ هـ — ١٠٠٢ م ، « وكان لها لسان حلو فى الوعظ » ، وكانت زاهدة ، ويُحكى عنها أنها قالت : « هذا قيمصى له اليوم سبع وأربعون سنة ألبسه وما تخرّق ، غزلتهُ لى أمى ، الثوب إذا لم يُعصَ الله فيه لا يتخرق »[٣] .

ولم يكن لهؤلاء القوم فى ذلك العصر أية صبغة رسمية ، فلا نجد مثلا ذكرا لعلماء معترف بهم فى ذلك القرن يخرجون لوعظ الناس ، ويحكى عن ابن الجوزى بعد ذلك بقرنين أنه حضر للاستماع لمجلس وعظه مائة ألف إنسان[٤] . ولم يكن للإسلام فى الواقع أية صبغة كهنوتية ، بحيث كان يُسمح لهؤلاء الخطباء المتطوعين الذين يتكسبون بالوعظ أن يرتقوا المنابر فى المساجد دون أن يتعرض لهم أحد ، ولم يكن بينهم وبين خطباء الجمعة الرسميين فرق سوى أنهم كانوا لا يعظون وهم وقوف ، بل كانوا يجلسون على الكراسى ، ويُحكى عن أبى زكريا

---

(١) المنتظم ص ٨١ ا ، وحضر مجلسه أحد العلماء مستخفياً ، فلما أعجبه شهر نفسه وقال له : أيها الشيخ ! القصص بعدك حرام .

(٢) تاريخ بغداد ج ١ ص ١١١ ا — ١١٢ ب من مخطوطة باريس .

(٣) تاريخ أبى المحاسن طبعة كاليفورنيا ص ٩٢ [illegible] (٤) [illegible]

يحيى بن معاذ الرازى الواعظ المشهور المتوفى عام ٢٥٨ هـ — ٨٧٢ م أنه جاء إلى شيراز فصعد المنبر ، واجتمع الناس فأول ما بدأ به أن قال شعراً :

مواعظ الواعظ لن تقبلا　　حتى يعيها قلبــــه أولا
يا قوم من أظلم من واعظ　　خالف ما قد قاله فى الملا
أظهر بين النـاس إحسانه　　وبارز الرحمن لمـا خلا

ثم وقع من على الـكـ ى ، ولم يتكلم فى ذلك اليوم[1] . وكذلك كان من عادة القاص من قبل — ب مصر على الأقل — أن يقرأ فى المصحف ثم يقص وهو جالس[2] . ولا بد أن يكون أصل هذه العادة أيضاً راجعاً إلى ما كان عند المسيحيين الأولين لأنه حتى عصرنا هذا لا يتكلم الخطيب فى أيام الصوم الـكبير عند الرومان الـكاثوليك من على منبر ؛ بل من على منصة فى وسط الـكنيسة ، ويجلس فى معظم الأحيان على كرسى . ونستطيع أن نلاحظ أنه منذ القرن السادس الهجرى فما بعده كانت ترسل إلى الخطيب رقاع ليجيب عنها[3] .

أما عند الفاطميين — ... كان للدين عندهم من صبغة إكليريكية فقد كان للخليفة جليس يذاكره بما يحتاج إليه من كتاب الله وأخبار الأنبياء والخلفاء ، ويكرر عليه ذكر مكارم الأخلاق ، وله بذلك رتبة عظيمة تلى رتبة صاحب ديوان المـكاتبات ، وهو يجتمع بالخليفة فى أكثر الأيام ، ومعه دواة مُحَلَّاة ، فإذا فرغ من المجالسة ألقى فى الدواة كاغد فيه عشرة دنانير وقرطاس فيه ثلاثة مثاقيل ندٍّ ليتبخر به عند دخوله على الخليفة ثانى مرة[4] .

---

(١) زبدة الفـكرة مخطوط باريس ص ١٠٩ ب — ١٢٠ ا . وهذا معنى ما قاله جولد زيهر فى مجلة المستشرقين الألمان . انظر Z d m g, 55, S. 507 anm 4.

(٢) الخطط للمقريزى ج ٢ ص ٢٥٤ .

(٣) رحلة ابن جبير ص ٢٢١ ، وعجائب المخلوقات للقزوينى ص ٢١٤ ، وكتابه الأذكياء لابن الجوزى ص ٩٥ .　　(٤) الخطط للمقريزى ج ٦ ص ٤٠٦ .

وكانت المساجد تظل مفتوحة ليلا ونهاراً إلا فى أحوال قليلة[١] . وهى بحكم الشرع يجوز أن تكون مأوى لمن لا يجد له مسكناً وللمسافرين والمتعبّدين ؛ وكان فى هذا ما يخفف بعض أعباء الحياة ومصاعبها ، ومما يحكى أنه كان يجتمع فى أحد المساجد بمصر جماعة من الرؤساء للنوم والحديث فى صحنه فى الليالى المقمرة ، فلما كانوا ليلة ، وأكلوا وتحدثوا ، انضم إليهم أحد الحواة ، فلما ناموا انفتحت سلة الحاوى ، وانطلق ما كان فيها من الأفاعى الغريبة ، فأيقظ القوم ، وكان معهم أطفال وصبيان ، فنهم من طلع على المنبر ، ومنهم من تسلق العمد ، ثم طلعوا المئذنة ، وناموا إلى بكرة . وكان قيّم المسجد يعلم أخبار هذه الاجتماعات التى تفرق شملها بعد تلك الليلة[٢] . على أنه كان يندر أن تكون « بيوت الله » خالية أثناء النهار[٣] ، وذلك فى المدن على الأقل ، وكانت أشبه بنوادٍ أو مجتمعات للناس . وخصوصاً المسجد الجامع ، حيث كان القاضى يجلس فى النهار للحكم بين الناس[٤] ، والعلماء يعقدون حلقات التدريس ؛ وكان موضع العالم يعرف بالسجادة التى يصلى عليها ، وكان من علامة سخط الحكومة على حلقة عالم من العلماء ومنعه من عقد مجلس علمه فى المسجد أن ترمى سجادته خارج

---

(١) وكان المسجد الجامع فى مصر على عهد الطولونيين يُغلق بعد صلاة العشاء ، لأن بيت المال كان فيه (ابن رستة ص ١١٦) ، وفى عام ٢٩٤ أمر والى مصر باغلاق المسجد الجامع فيا بين الصلوات ؛ فكان يفتح فى أوقات الصلوات فقط ، فضج الناس من ذلك ثم فُتح لهم (الكندى ص ٢٦٦ من كتاب الولاة)

(٢) الخطط للمقريزى ج ٢ ص ٢١٩ .

(٣) المحاسن والمساوئ للبيهقى ص ٤٨٣ (؟) .

(٤) على أن حركة أهل السنة فى القرن الثالث بما كان لها من رد فعل قوى اعتبرت ذلك امتهاناً لحرمة المسجد ، فأمر المعتضد عام ٢٧٩ هـ ألا يجلس فى الجامع قاص ، وحلف باعة الكتب ألا يبيعوا كتب الفلاسفة والجدل ونحو ذلك — النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٨٧ طبعة ليدن ، والأصح أن كلمة قاض هنا هى تحريف لكلمة قاص ، لأن القصص هو الذى كان مكروهاً فى المساجد ، انظر تاريخ الطبرى ج ٣ ص ٢١٣١ ، ٢١٦٠ . (المترجم)

المسجد . وكان يبلغ النشاط فى المسجد أقصاه فى المساء ، وهو وقت النشاط الدينى عند الشرقيين ، وحوالى هذا العصر الذى نتكلم عنه يحكى لنا المقدسى ما شاهده فى الفسطاط فيقول : « وبين العشاءين (بالفسطاط) جامع مغتص بحلق الفقهاء وأئمة القراء وأهل الأدب والحكمة ، ودخلتُها مع جماعة من المقادسة ، فربما جلسنا نتحدث فنسمع النداء من الوجهين : دوِّروا وجوهكم إلى المجلس ، فننظر فإذا نحن بين مجلسين ، على هذا جميع المساجد ، وعددت فيه مائة وعشرة مجالس »[١] .

وكان الناس بمصر يجعلون لأنفسهم كثيراً من الحرية فى المساجد ، وقد اندهش ابن حوقل ، لأنه من أهل المشرق ، حينما رأى الناس يأكلون فى المسجد ، وحينما رأى باعة الخبز والماء يباشرون حرفتهم هناك[٢] . ويحكى لنا المقدسى ، وهو شامىّ ، أن المصريين يكثرون النخع والمخاط فى المساجد ، ويجعلونه تحت الحصر[٣] .

وكانت المساجد الصغيرة بالنسبة للمسلمين الذين يعيشون على مقربة منها بمثابة بيوت أخرى لهم ، وكانوا يستخدمونها فى منافع كثيرة ، فكان التاجر مثلا يودع فى المسجد درّابات دكانه التى يغلقه بها[٤] . وفى فارس كان الناس يجلسون فى المساجد ثلاثة أيام للتعزية[٥] . فقد ظل المسجد محتفظا بصبغته الأولى وهى أن يكون « بيت النداء » الذى لا بد للجماعة الإنسانية منه فى العادة فكان يجلس فيه الناس للحديث[٦] ، ويقصون فى نهارهم حوادث ليلهم[٧] . وفيه كانت تقال القصائد الشعرية كما كان ملتقى أصحاب المغامرات الغرامية وعشاق الغلمان[٨] .

وكان من أكبر مراكز المحتالين واللصوص كما تدل على ذلك مجموعتا المقامتين

---

(١) المقدسى ص ٢٠٥ . (٢) ابن حوقل ص ٣٤١ (؟)
(٣) المقدسى ص ٢٠٥ .
(٤) الفرج بعد الشدة التنوخى ج ٢ ص ١١٠ . (٥) المقدسى ص ٤٤٠ .
(٦) مقامات الهمذانى طبعة بيروت ١٨٨٩ ص ١٥٧ .
(٧) كتاب الأغانى ج ١٧ ص ١٤ .
(٨) يتيمة الدهر ج ٢ ص ١٣٠ ، وانظر فصل الأخلاق والعادات ؛ والمنتظم ص ٤٨ أ .

المشهورتين[١] . وقد وصلت لنا هذه الحكاية التالية عن بعض المتأخرين : « رأيت بحرّان سنة ثلاثة عشر وستمائة رجلا من بنى ساسان ، قد أخذ قرداً علّمه السلام على الناس ، والتسبيح والسواك والبكاء ، ثم رأيت لهذا القرد من الناموس ما لا يقدر عليه أحد ، فإذا كان يوم الجمعة أرسل عبداً هنديا حسن الوجه نظيف الملبوس إلى الجامع ، فيبسط عند المحراب سجادة حسنة ، فإذا كان فى الساعة الرابعة لبّس القرد ملبوساً خاصا من ملابس أولاد الملوك ، وجعل فى وسطه حياصة لها قيمة ، ثم طيّبه بأنواع الطيب ، ثم أركبه بغلة بمركوب مذهب محلّى ، ثم مشى فى ركابه ثلاثةُ عبيد هنود بأفخر ملبوس ، الواحد يحمل الوَطا ، والآخر يحمل الشرموذة ، والآخر يطرق قدامه ، وهو يسلم على الناس ، وكل من سأل عنه يقول هذا ابن الملك الفلانى من أكبر ملوك الهند ، وهو مسحور ، فلا يزال حتى يدخل الجامع فيفرش له الوَطا فوق السجادة ، ويحط له سبحة مسواكا ، فيقلع القرد منديله من الحياصة ، ويضعه بين يديه ، ويستاك بالمسواك ، ويصلى ركعتين تحية المسجد ، ثم يأخذ السبحة ويسبح ، فإذا فعل ذلك نهض العبد الكبير على قدميه فسلم على الناس ، وقال : يا أصحابنا ؟ من أصبح مُعافًى فإن لله عليه نعمةً لا تحصى ، واعلموا أن هذا القرد الذى ترونه بينكم ، والله ، لم يكن فى زمانه أحسن شباباً منه ، ولا أطوع لله تعالى منه . ولكن المؤمن مُلْقَى لقضاء الله ، وكان من القضاء المدبَّر أنْ زوّجه والده ابنةَ الملك الفلانى ، فأقام معها مدة ، ثم قالوا لها إنه قد عشق مملوكا له ، فأدركتها الغيرة وطلبت دستوراً لها فى زيارة أهلها ، فأذن لها فى ذلك وجهزها بما تحتاج إليه ، فلما حصلت عند أهلها سحرته

(١) حكى الحريرى أنه أنشأ المقامة الحرامية وبنى عليها سائر المقامات بعد أن شهد فى مسجد البصرة أبا زيد السروجى ، وكان شيخاً شحاذاً بليغاً ومكديا فصيحاً حسن صياغة الكلام ، وكان أبو زيد يتنقل بين المساجد ، ويخبر فى كل مسجد زيّه وشكله ، ويظهر ما عنده من فنون الحيلة وبلاغة الكلام . انظر الإرشاد لياقوت ج ٦ ص ١٦٨ .

كما ترون ، فلما رأى والده ذلك قال هذا أختلف به عند الملوك ، فأمر بإخراجه من ذلك الإقليم ، فأُخرج ، وقد سألناها بجميع الملوك فادعت أنهـا خلفت عنده أثاثاً قيمته مائة ألف دينار ، وقد تخلّف عليه عشرة آلاف ، من يساعده بشيء من ذلك ؟ فارحموا هذا الشاب الذى عدم الأهل والملك والوطن ، فأُخرج من صورته إلى هذه الصورة ، فعند ذلك يجعل القرد المنديل على وجهه ويبكى ، فترقّ قلوب الناس لذلك ، ويرفده كل أحد بما يسّره الله فما يخرج من الجامع إلا بشيء كثير ، وهو يدور به البلاد على هذه الصفة »[١] .

ولا نجد فيا قبل القرن الثالث الهجرى أثراً لتمدين المسجد واعداده بالأدوات اللائقة به ، ثم أصبح مجالا للعمل الفنى الجميل ، فمثلا أمر الخليفة المأمون بالكتابة إلى الآفاق فى الاستكثار من المصابيح فى المساجد[٢] . وقد امتازت الشام بنوع خاص بإضاءة المساجد على الدوام ، وربما كان ذلك تقليداً للمسيحيين ، وكانوا يضيئونها بالقناديل « ويعلقونها بالسلاسل مثل مكة »[٣] . ويظهر أنه فى أواخر القرن الرابع حدثت عادة إضاءة المساجد بمصباح كبير يشبه التنور ، ويسمى لذلك بالتنور ، وكان فيه مجال لأصحاب الفن الزخرفى لكى يظهروا روائع مبتكراتهم ، وفى عام ٣٨٧ هـ عُمل فى جامع عمرو تَنُّور يوقد كل ليلة جمعة ؛ وفى عام ٤٠٣ هـ أُنزل إليه من قصر الخليفة الحاكم بأمر الله تَنُّورٌ كبير من فضة فيه مائة ألف درهم فضة ، وعُلّق بالجامع بعد أن قُلعت عتبتاه حتى أدخل فيه[٤] .

وقد ذُكر من أثاث الجامع الأزهر ، الذى أُنشئ بالقاهرة عام ٣٦١ هـ وجدّده الحاكم بأمر الله ووقف عليه أوقافاً ، هذه الأشياء ، كما جاء فى كتاب الوقف :

(١) كشف الأسرار الجوبرى مخطوط ڤينا ص ٢٥ ا — ب .

(٢) المحاسن والمساوئ للبيهقى ص ٤٧٢ . (٣) المقدسى ص ١٨٢ .

(٤) حسن المحاضرة للسيوطى ج ٢ ص ١٤٥ طبعة مصر ١٣٢٧ هـ .

الحصر العبادانية .

الحصر المضفورة .

عود هندى ومسك وكافور للبخور فى شهر رمضان وأيام الجمع .

شمع ومشاقة لسرج القناديل وفحم للبخور .

أربعة أحمال وستة دلاء أدم وعشر قفاف ومائتا مكنسة .

أزيار فخار وأجهزة حملها .

زيت للوقود .

تنوران فضة وسبعة وعشرون قنديلا فضة[١] .

وكانت المساجد تحت إشراف القاضى ، وكانت عادته فى القاهرة على عهد الفاطميين إذا بقى لشهر رمضان ثلاثة أيام طاف بنفسه على المساجد لينظر حصرها وقناديلها وعماراتها وما تشعث منها[٢] ، ولم تكن صيانة المساجد كثيرة النفقات ، فذكر مثلا أن نفقات المسجد بمصر فى ذلك العهد بلغت اثنى عشر درهما فى الشهر ؛ وإن كان فى عام ٤٠٣ هـ — ١٠١٢م يُقدَّر عدد المساجد التى لا دخل لها فى مصر بنحو من ثمانمائة وثلاثين مسجداً . وفى عام ٤٠٥ هـ — ١٠١٤م وقف الخليفة عدداً من الضياع للإنفاق منها على المساجد الجامعة التى يخطب فيها وعلى قرائها وعلمائها ومؤذنيها[٣] ، أما فيما يتعلق بالتفصيل فى تزيين بيوت الله فى داخلها فليس عندى فى ذلك مع الأسف إلا معلومات قليلة : فى البلاد الآرامية لم يمكن القضاء على المعابد البعلية القديمة بما كان فيها من عبادة الأشجار ، وكان فى طبرية بفلسطين مسجد يسمى مسجد الياسمين لأن ساحته كانت مملوءة بشجر الياسمين[٤] . وكان بجامع الرقة شجرتا كرم وشجرة توت ، وكانت عادة أهل

(١) الخطط للمقريزى ج ٢ ص ٢٧٤ ، وانظر حسن المحاضرة للسيوطى ج ٢ ص ٢٩٥ .
(٢) الخطط ج ٢ ص ٢٩٥ ، (٣) نفس المصدر ج ٢ ٢٩٥ .
(٤) ناصر خسرو ص ٥٦ .

مصر أنهم يضربون على جوامعهم شراعات وقت الخطبة[١] ، وهذا شبيه بما كان يعمله الهلينيون عند عقدهم حلقات الألعاب ، على أنه يحكى مثل ذلك عن شيراز والبصرة[٢] ، وكان فى جامع دار السلطان ببغداد منبران[٣] . وكان فى جوامع خراسان قدور كبار من نحاس على كراسى يطرح فيها الجمد مع الماء يوم الجمعة[٤] وكان فى جامع ابن طولون بمصر فوّارة على الصورة المألوفة حتى ذلك العهد : كان فى وسط صحنه قبة مشبكة من جميع جوانبها ، وهى مذهبة على عشرة عمد من رخام ، مفروشة كلها بالرخام ، وتحت القبة قصعة رخام سعتها أربعة أذرع فى وسطها فوارة تفور بالماء[٥] ، وهذه الفوارة ذات القبة حلت محل القبة التى كانت تحمل بيت المال فى المساجد الأخرى . وبعد ذلك بمائة عام عملت أول فوارة تحت قبة بيت المال فى جامع عمرو[٦] . ويحكى لنا ناصر خسرو بعد ذلك بمائة عام أنه رأى مثل هذه الفوارة وفيها أنبوبة من نحاس فى بلدتى آمد وطرابلس الشام[٧] . وكذلك كانت تجمع النفقات لبناء الجوامع أو إضافة البقاع والدور إليها ؛ ففى سنة ٢٢٦ هـ — ٨٤١ م كان لأحد الذين نصبوا أنفسهم لذلك أثر كبير فى توسيع جامع بأصفهان ، فكان يكلم الرجل بعد الرجل حتى اجتمعت له الجمل الكثيرة ، وكان لا يستحقر خاتماً أو قيمته أو كبة غزل أو قيمتها[٨] .

وقد اتخذت العبادة صورة تختلف باختلاف البلاد ؛ ولم تحتفظ فى أى مركز من المراكز الكبرى فى بلاد الإسلام بالصبغة الإسلامية الأولى فى بساطتها ونقائها .

---

(١) المقدسى ص ٢٠٥ .
(٢) المقدسى ص ٢٠٥ ، ٤٣٠ .
(٣) المنتظم لابن الجوزى ص ٦٧ ب .
(٤) المقدسى ص ٣٢٧ .
(٥) حسن المحاضرة للسيوطى ج ٢ ص ١٣٧ ؛ ومما يدل على أنها شىء مستحدث ما وجه لها من النقد . وابن طولون لم يعمل الميضأة فى المسجد ، بل بناها خلفه فى مؤخره . نفس المصدر .
(٦) نفس المصدر ج ٢ ص ١٣٥ من طبعة مصر ١٣٢٧ هـ .
(٧) ناصر خسرو ص ٢٨ ، ٤١ من الترجمة .
(٨) ذكر أخبار أصفهان مخطوط ليدن ص ١١ ب .

وقد دخلت على العبادة الإسلامية فى كل ناحية المظاهر الدينية القديمة ؛ وأهم ما نجده فى القرن الرابع ظهور التطريب فى القراءة والأذان فى جميع النواحى ؛ ويحكى ابن رسته أنه كان بمسجد صنعاء اثنان وعشرون مؤذناً يؤذنون جميعاً فى كل صلاة ؛ أحدهم فى إثر الآخر إلا فى صلاة المغرب خاصة ، ثم يأخذون جميعاً فى الإقامة بصوت واحد وهم يمشون من المنارة إلى الصف ، فإذا انتهوا إلى الصف يكونون قد فرغوا من الإقامة[١] . ومن هذه العادة نشأت هيئة المؤذنين الرسمية — وفى خراسان كان للمؤذنين سرير قدام المنبر يؤذنون عليه بتطريب وألحان[٢] . وقراءة القرآن بالتلحين — وربما كانت تقليداً لما جرى عليه النصارى فى كنائسهم — أنكرها مالك رضى الله عنه ، وأجازها الشافعى ، وهى القراءة الشائعة الآن فى أكثر البلاد الإسلامية[٣] . وفى عام ٢٣٧ هـ — ٨٥١ م ولى قضاء مصر الحارثُ بن مسكين بعد رجوع المأمون عن مذهب أهل السنة ، فمنع القراء الذين يقرءون القرآن بالألحان فى بعض المساجد الصغيرة ، لا فى المسجد الجامع ، من القراءة بالألحان ؛ وهو أول قاض فعل ذلك[٤] . وكان أبو بكر الآدمى القاضى (المتوفى عام ٣٤٨ هـ — ٩٥٩ م) من أحسن الناس صوتاً بالقرآن ، حتى كان يسمى صاحب الألحان ، وقد حج مرة مع بعض العلماء فلما صاروا بمدينة الرسول عليه الصلاة والسلام وجد أحد أصحابه رجلا ضريراً قد جمع حلقة فى مسجد رسول الله وقعد يقص ويروى الكذب من الأحاديث الموضوعة والأخبار المفتعلة ، وعرفوا أن النكير عليه لا يؤثر ، فأشار أحدهم على أبى بكر أن يستعيذ ويقرأ فما هو إلا أن ابتدأ حتى انحلت الحلقة من

---

(١) الأعلاق النفيسة لابن رسته ص ١١١ . (٢) المقدسى ص ٣٢٧ .

(٣) محاضر المصريين لمحمد عمر طبعة مصر ١٣٢٠ هـ ص ١٠٦ .

(٤) القضاة للكندى ص ٤٦٩ .

حول الضرير وانفضّ الناس جميعاً من حوله ، وأحاطوا بأبي بكر يسمعون قراءته ، تاركين الضرير وحده[١] . وفي سنة ٣٩٤ هـ — ١٠٠٣م خرج الأصيفر المتفيق على الحاجّ ، وحصرهم ، وعزم على أخذهم ، وكان فيهم أبو الحسن الرفاء ، وأبو عبد الله الدجاجي ، وكانا يقرآن القرآن بأصوات لم يُسمع مثلها ، فحضرا عند الأصيفر ، وقرآ القرآن ، فترك الحاجّ ، وعاد وقال لهما : قد تركت لكما ألف ألف دينار[٢] . وهكذا أحرز هذان القارئان انتصاراً غريباً لم يكن يتوقع . وإن قصة أريون (Arion) ليصغر قدرها إذا قورنت بقصة هذين القارئين[٣] ، وكان الوعاظ المتطوّعون يجعلون هؤلاء القراء يجلسون على كراسي موضوعة أمام المنبر ، فيتوّقون ، ويشوّقون ، ويأتون بتلاحين معجبة ، ونغمات مطربة[٤] . وكان من الوعاظ الماهرين قوم يرتبون القراء حتى يقرءوا ما يقع من آيات في الخطبة[٥] .

حكى ابن طيفور (المتوفى عام ٢٧٨ هـ — ٨٩١ م) عن الخليفة المأمون أنه قال : « وإن الرجل ليأتيني بالقطيعة من العود ، أو بالخشبة ، أو بالشيء الذي لعل قيمته لا تكون إلا درهما أو نحوه ، فيقول إن هذا كان للنبي صلى الله عليه وسلم ، أو قد وضع يده عليه ، أو شرب فيه أو مسّه ؛ وما هو عندي بثقة ، ولا دليل على صدق الرجل ، إلا أني بفرط النيّة والمحبة أقبّلُ ذلك ، فأشتريه بألف دينار وأقل وأكثر ، ثم أضعه على وجهي وعيني وأتبرك بالنظر إليه وبمسه ،

---

(١) المنتظم لابن الجوزي ص ٨٨ ب . (٢) ابن الأثير ج ٩ ص ١٢٩ .

(٣) كان أريون شاعراً وموسيقيا يونانيا عاش في القرن السابع قبل الميلاد ، وفي الأساطير أن القرصان رموه في البحر فنجاه من الموت نوع من السمك يسمى الدوفين Douphin ذلك لأنه ضرب على آلته الموسيقية فسحر السمك بحسن صوتها .

(٤) رحلة ابن جبير ص ٢٢١ . وكذلك كان يسمى باسم القراء من كان يقوم بالقراءة على المذبح في الكنيسة المسيحية . يقول أبو نواس (في ملحق الديوان طبعة القاهرة ١٣١٦ هـ ص ٨٠) :

بداود وما يتلون منه بترجيع يردد في الحلوق

(٥) كشف الأسرار مخطوط فينا ص ١٧ ب .

فأستشفى به عند المرض يصيبنى أو يصيب من أهتم به فأصونه كصيانتى نفسى وإنما هو عود لم يفعل هو شيئاً ولا فضيلة له تستوجب المحبة ، إلا ما ذُكر من مسّ رسول الله صلى الله عليه وسلم »[1] . وفى القرن الرابع الهجرى كان تقديس المخلّفات عند أهل السنة مقصوراً فقط على ما خلفه النبى محمد عليه السلام ومن سبقه من الأنبياء ؛ وهذا دليل على أن تقديس الأولياء كان فى ذلك العصر فى دوره الأول[2] . ويحكى عن أبى العباس السيارى وهو شيخ من شيوخ الصوفية بمرو توفى عام ٣٤٢ هـ[3] أنه اشترى شعرتين من شعر رسول الله بمال كثير ورثه عن أبيه وأوصى أن توضعا فى فمه عند الممات[4] . وفى ذلك العصر تفاقم خطب التزوير ؛ ففى أوائل القرن الرابع رفع إلى أبى الحسن بن الفرات أن رجلا من اليهود ادعى أن معه كتاباً من رسول الله صلى الله عليه وسلم بإسقاط الجزية عن أهل خيبر ، فأمر بإخراج الكتاب ، فلما قرأه . قال : هذا مزوّر ؛ لأن خيبر افتتحت بعد تاريخ كتابك بسبعة وستين يوماً ، ولكنا نحتمل عنك جزيتك إعظاماً لحقّ من لجأت إلى الاعتصام به[5] .

---

(١) كتاب بغداد ص ٧٦ .

(٢) وأستطيع أن أضيف إلى الآثار التى ذكرها جولدزيهر Goldziher Muh. Studien, II, 356 ff. ما يأتى : سرير النبى ، وقد اشتراه معاوية بواسطة أحد أصحابه ، بعد وفاة عائشة ، بمبلغ أربعة آلاف درهم (كتاب ألف با ج ١ ص ١٣١ نقلا عن ابن قتيبة) ؛ والبردة ، والعهد النبوى ، وهو مكتوب فى أديم وكانا [illegible] أذرح ، وهى مدينة متطرفة حجازية شامية كما يقول المقدسى (ص ١٧٨) .

(٣) رسالة القشيرى ص ٢٨ ، (٤) كشف المحجوب ص ١٥٨ .

(٥) كتاب الوزراء ص ٦٧ — ٦٨ ، ويحكى أيضاً أنه فى عصر الخطيب البغدادى أظهر بعض اليهود كتاباً ، وادعى أنه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بإسقاط الجزية عن أهل خيبر ، وفيه شهادات الصحابة ، وفيه خط على بن أبى طالب ، فعُرض على أبى بكر الخطيب فقال إنه مزوّر ؛ لأن فيه شهادة معاوية ، ومعاوية أسلم يوم الفتح ، وخيبر كانت فى سنة سبع ، وفيه شهادة سعد بن معاذ ؛ وكان قد مات يوم الخندق فى سنة خمس ، انظر الإرشاد لياقوت ج ١ ص ١٤٧ — ١٤٨ .

والأثر الوحيد الذى كان له حق لا نزاع فيه فى المساجد ، وشأن لا جدال فيه وخصوصاً بالنسبة لدين أساسه كتاب منزّل هو مخطوطات القرآن ، ولا سيما المصاحف التى يرجع أصلها إلى عثمان ، والتى تُعتبر لذلك أصح المصاحف . وكان يوجد من أمثال هذه المصاحف خمسة : المصحف الذى كان عند أسماء ، والذى كان محفوظا بجامع عمرو بمصر ؛ وكان يُقرأ منه ثلاث مرات فى الأسبوع ؛ وكان الخليفة الفاطمى يقبّله ويتبرّك به[١] . وكذلك كان فى الجامع الكبير بدمشق ، كما حكى ابن جبير فى القرن السادس الهجرى — خزانة كبيرة ، فيها مصحف من مصاحف عثمان ، وهو المصحف الذى وجّه به إلى الشام ، وتفتتح الخزانة كل يوم بعد الصلاة فيتبرك الناس بلمسه وتقبيله ويكثر الازدحام عليه[٢] ، وهذا هو الأثر الوحيد الذى وجده ابن جبير . ولما ولى قضاء مصر الحارث بن مسكين عام ٢٣٧ هـ — ٨٥١ م كشف أمر المصاحف التى فى المسجد وولى عليها أميناً من قبله ، وهو أول من فعل ذلك من القضاة[٣] . وفى القرن الرابع زادت المساجد فى تقديس مصاحف عثمان زيادة غريبة مما يدل على خفة الناس فى الاعتقاد بصحة نسبها . يحكى لنا المقريزى أن رجلا من أهل العراق جاء إلى مصر ، وأحضر مصحفاً ذكر أنه مصحف عثمان رضى الله عنه ، وأنه الذى كان بين يديه يوم الدار ، وكان فيه أثر الدم ، وذكر أنه استُخرج من خزائن المقتدر ، فدُفع المصحف إلى القاضى ، فأخذه ، وجعله فى الجامع ، وشهره ، وجعل عليه خشباً منقوشاً ؛ وكان الإمام يقرأ فيه يوماً وفى مصحف أسماء يوماً ، ولم يزل على ذلك إلى أن رُفع واقتصر على القراءة فى مصحف أسماء أيام العزيز بالله عام ٣٧٨ هـ — ٩٨٨ م[٤] . وفى عام ٣٦٩ هـ — ٩٧٩ م كان عند الخليفة ببغداد مصحف ينسب

(١) النجوم الزاهرة لأبى المحاسن ج ٢ ص ٤٧٢ طبعة ليدن .
(٢) رحلة ابن جبير ص ٢٧٠ (٣) القضاة للكندى ص ٤٦٩ .
(٤) الخطط للمقريزى ج ٢ ص ٢٥٥ .

لثيان . وضعه بين يديه وعلى كتفيه البردة وبيده القضيب ، وذلك عند تتويج عضد الدولة[١] . وحكى الشريف الإدريسى أنه كان فى مخزن جامع قرطبة « مصحف يرفعه رجلان لثقله؛ فيه أوراق من مصحف عثمان بن عفان ، وهو المصحف الذى خطه بيمينه رضى الله عنه ، وفيه نقط من دمه ، وهذا المصحف يخرج فى صبيحة كل يوم جمعة ، ويتولى إخراجه رجلان من قومة المسجد ، وأمامهم رجل ثالث بشمعة ، وللمصحف غطاء بديع منقوش بأغرب ما يكون من النقش وأدقه وأعجبه ، وله بموضع المصلى كرسى يوضع عليه ، ويتولى الإمام قراءة نصف حزب منه ثم يُرَدّ إلى موضعه »[٢] . وكانت ثم مخلّفات أخرى محفوظة لقلة شأنها فى بعض الجوامع الإقليمية . ولم يكن علماء الدين يسمحون بحفظ هذه الأشياء لما فيها من تقليد للنصارى ، فكان فى مسجد بيرون نعال الرسول[٣] . وكان فى محراب الجامع بمدينة تُوُّح المشهورة بتجارتها فى جزيرة العرب عظم قالوا هو الذى قال للنبى صلى الله عليه وسلم : لا تأكلنى ، فأنا مسموم[٤] .

وكان يقابل النزعةَ الدينيةَ القوية من الجانب الآخر فئةٌ يحتقرون كل ما هو دينى ، ويجرءون على الجهر بذلك على نحو لم يسبق له نظير فى عصر من العصور ، فكان أبو العلاء المعرى الشاعر بالشام (ولد عام ٣٦٣ هـ — ٩٧٤ م وتوفى عام ٤٤٩ هـ — ١٠٥٧ م) يهاجم كل ما هو دينى مستنداً فى ذلك إلى وجهة نظر عقلية ، وهو من أسرة من القضاة الفضلاء[٥] . وقد أصابته علة الجدرى وهو ابن أربع سنين ، وذهب فيها بصره[٦] . ثم درس اللغة ، وألّف فى علومها بعض

(١) المنتظم ص ١١٥ ب .
(٢) وصف إفريقية والأندلس للإدريسى طبعة دوزى ودى غوى ص ٢١٠ .
(٣) Goldziher, muh. Stud. II, s. 362 . (٤) المقدسى ص ٨٤ .
(٥) الإرشاد لياقوت ج ١ ص ١٦٢ — ١٦٣ .
(٦) نفس المصدر ؛ و J R A S, 1902, s. 296 .

التصانيف . وفى السابعة والثلاثين من عمره رجع من بغداد إلى المعرّة بلدته ، وهو يقول : رحلت فلا دنيا ولا دين نلته وما أوبتى إلا السفاهة والخرق[١]

وأزمع على ثلاثة أشياء : « نبذة كنبذة فنيق النجوم ، وانقضاباً من العالم كانقضاب القائبة من ألقاب ، وثباتاً فى البلدان إن حال أهله من خوف الروم »[٢]

ولما بلغ ثلاثين عاماً سأل ربه إنعاماً ورزقه صوم الدهر ، فلم يفطر فى السنة ولا الشهر إلا فى العيدين[٣] ، وكان له فى السنة نيف وعشرون ديناراً يصير إلى خادمه معظمها ، ويبقى له أيسرها ، ومع ذلك فقد رفض عطية أرسلها إليه الخليفة من مصر وذلك من غير غرض خفى وراء الإرسال فيما نعلم[٤] .

وقد أدرك أبا العلاء فى كبره العجزُ حتى كان يصلى قاعداً[٥] . ولم يكن فيلسوفاً بالمعنى الفنى لهذه الكلمة ؛ فلا نجد عنده تفكير اليونان ، كما أنه لم يكن بحاجة إلى التعمق فى التفكير ، فقد كان أديباً مصلحاً ، وهو شبيه بتولوستوى ، ينادى بالرجوع إلى العقل وإلى حياة البساطة ، وهو نباتى مدقّق فى مبدئه ، ولم يقتصر على ترك أكل اللحم بل ترك أكل اللبن والبيض والشهد[٦] . وهو

---

(١) بعض أشعار أبى العلاء نشرها كريمر ، انظر مجلة جمعية المستشرقين الألمان Z D M G, s. 503 . (٢) رسائل أبى العلاء طبعة مرجليوث ص ٣٤ .

(٣) J R A S, 1902, 298 .

(٤) نفس المصدر ص ٣٠٢ ؛ وفى هذا الوقت التى حدث فيه ذلك ، وكانت فيه ثروة أبى العلاء عظيمة ، مر الرحالة الفارسى ناصر خسرو بمدينة المعرة ، ولم يلبث فيها إلا يوماً واحداً ولم ير أبا العلاء ، ولكنه يقول : « هو رئيس البلدة ، وله ثروة كبيرة ، وعبيد وخدم ، وأهل البلدة كلهم خدم له ، وهو قد تزهد ، فلبس بسيطاً ولزم بيته ، وقوته عصف من خبز الشعير ، وبابه مفتوح دائماً للزائرين ، ونوابه وأصحابه يديرون أمر البلدة ، ولا يرجعون لرأيه إلا فى الكليات ، وهو لا يرد طالباً لحاجته ، ويصوم الدهر ويقوم الليل كله ، ولا يشغل نفسه بأمور الدنيا » ويقول أبو العلاء نفسه (كريمر ص ١٠١ ، وطبعة بجانى ص ٢٠٢) :

واتهامى بالمال كلف أن يطلب ما يقتضى التمويل

(٥) J R A S. 1902, 304 . (٦) نفس المصدر .

يحارب الخرافات والتنجيم ، ويحارب كل ما هو دينى بنوع خاص ، فهو يقول :[١]

أفيقوا أفيقوا يا غُواة فإنما   دياناتكم مكرٌ من القدماء
أرادوا بها جمعَ الحطام فأدركوا   وبادوا وماتت سنة اللؤماء

ويقول[٢] :

يرتجى الناس أن يقوم إمام   ناطق فى الكتيبة الخرساء
كذب الظن ، لا إمام سوى العقـ   ـل مشيراً فى صبحه والمساء

ويقول :

إنما هذه المذاهب أسبا   ب لجذب الدنيا إلى الرؤساء
غرض القوم متعة لا يرقو   ن لدمع الشماء والخنساء

ويقول[٣] :

فى القدس قامت ضجة   ما بين أحمد والمسيح
هذا بناقوس يدق   وذا بآذان يصيح
كل يشيّد دينه   يا ليت شعرى ما الصحيح

ويقول[٤] :

أقيمى لا أعد الحج فرضاً   على عجز النساء ولا العذارى
فنى بطحاء مكة شر قوم   وليسوا بالحماة ولا الغيارى
وإن رجال شيبة سادنيها   إذا راحت لكعبتها الجمارا
قيام يدفعون الوفد شفعاً   إلى البيت الحرام وهم سكارى
إذا أخذوا الزوائق أولجوهم   ولو كانوا اليهود أو النصارى

وقد راسل أبا العلاء أحدُ أهل مصر ؛ وكان قد قام فى نفسه أن عند

(١) Kremer, Z D M G, 30, s. 40 .   (٢) نفس المصدر ص ٤٣ .
(٣) Z D M G, 29, 637-638 .   (٤) Z D M G, 30, s, 45 .

أبى العلاء « من حقائق دين الله سرًّا قد أسبل عليه من التَقِيّة ستراً »[١]، فسأله فلم يظفر بما أراد ، ولم يكن عند أبى العلاء ما يعلّمه للناس من أصول الأخلاق سوى التسليم والرضا مع الفرح ، والدعوة إلى حياة الزهد والبساطة ، ويتجلى هذا فى رسالته المسماة رسالة الغفران التى كتبها ردًّا على رسالة مشهورة بعثها له ابن القارح[٢] ، ورسالة الغفران يتجلى فيها التهكم الخفى على أئمة ، وإن كانت رديئة التأليف ؛ وفيها تكلم عن أشياء كثيرة ، وتناول الكلام عن الجنة والنار والزندقة والعقل[٣] . ولهذا فإن تعاليم أبى العلاء ، رغم كثرة تلاميذه ، ذهبت كما يتبدد الدخان فى الجو .

وعلى حين كان علماء الدين يتجادلون فيما إذا كان القرآن مخلوقاً أو قديماً ، وعلى حين كان أبو بكر محمد بن الحسن بن فورك المتوفى عام ٤٠٦ هـ — ١٠١٥ م لا ينام قط فى بيت فيه مصحف حتى كان إذا أراد النوم انتقل عن المكان الذى فيه إعظاماً لكتاب الله عز وجل[٤] ، كان ابن الروندى المتوفى عام ٢٩٣ هـ — ٩٠٦ م ، وهو من أكبر مستحق اللعنة بين الملحدين فى الإسلام ، يقول : إنا نجد فى كلام أكثم بن صيفى ما هو أحسن من بعض القرآن ، « وقال : إن المسلمين احتجوا لنبوة نبيهم بالقرآن الذى تحدى به النبى فلم يقدر العرب على معارضته ، فيُقال لهم : لو ادعى مُدّعٍ لمن تقدم من الفلاسفة مثلَ دعواكم فى القرآن فقال : الدليل على صدق بطليموس أن إقليدس ادعى أن الخلق يعجزون عن أن يأتوا بمثل كتابه ، لكانت نبوته تثبت[٥] . وحكى عن أبى الحسين بن أبى البغل أحد كبار العمال أن الوزير الخاقانى اتهمه بالإلحاد والاستهزاء بالقرآن وطلب من الخليفة المقتدر أن يمكنه منه ويطلق يده

---

(١) J R A S, 1902, s. 308 .
(٢) الإرشاد لياقوت ج ٥ ص ٤٢٤ .
(٣) J R A S, 1900 ff .
(٤) طبقات السبكى ج ٣ ص ٥٣ .
(٥) تاريخ أبى الفدا تحت عام ٢٩٣ هـ (ج ٢ ص : ٢٠ — ٢٠٨) .

فيه ، تفعل[١] . ويُروى عن أبى العلاء المعرى أنه عارض القرآن بكتاب عنونه بالفصول والغايات فى محاذاة السور والآيات ، وقد حفظ لنا الباخرزى مؤرخ الأدب قطعة من كتاب أبى العلاء هذا ، وهى جيدة ، ولكنها تشفّ عن سخرية ، وقد قيل لأبى العلاء : ما هذا إلا جيد إلا أنه ليس عليه طلاوة القرآن ، فقال حتى تصقله الألسن فى المحاريب أربعمائة سنة ، وعند ذلك انظروا كيف يكون[٢] .
وكان فى القرن الرابع أيضاً فريقٌ من الأغنياء المترفين الذين يحبون الحياة الجميلة واللهو ولا يعبأون بالدين ؛ وفريقٌ آخر من المتهكمين بالدين . يقول سعيد قاضى البقر الشاعر :

يارب دعنى بلا صلاح   يارب ذرنى بلا فلاح
يدى مدى الدهر فوق ردفٍ   وراحتى تحت كأس راح

ويقول أبو هريرة أحمد بن عصام أحد الشعراء المصريين فى النصف الأول من القرن الرابع ، وكان من أصحاب النوادر والمجون والإدمان على شرب الخمر :

مجلس لا يرى الإله به غـ   ـير مصلٍّ بلا وضوء وطهر
سُجّد للكؤوس من دون تسبيـ   ـح سوى نغمة لعود وزمر[٣]
أنا أشهو الأنام فى مثل ذا المجـ   ـلس لا مجلس لنهى وأمر

ويقول السلامى الشاعر :

فى جوار الصبا نحل بيوتا   عمرت بالنصوص والأقمار
ونصلى على أذان الطنابـ   ـير ونصغى لنغمة الأوتار
بين قوم إمامهم ساجد للـ   ـكأس أو راكع على المزمار[٤]

---

(١) كتاب الوزراء ص ٢٧٠ .   (٢) انظر مجلة جمعية المستشرقين الألمان Z D M J, 29, s. 640 . وقد طبع الجزء الأول من هذا الكتاب وليس فيه ما يدل على ذلك (المترجم)   (٣) المغرب لابن سعيد ص ١٠٢ ، ١٠٣ .
(٤) يتيمة الدهر ج ٢ ص ١٧١ ؛ وتوفى السلامى عام ٣٩٤ هـ .

وكان ابن الحجاج أكبر المتزندقين فى خمرياته ، فهو يقول فى خمرية له :

يا خليلى قد عطشت وفى الخمـ ـرة ريٌّ للحائم العطشان
فاسقيانى محض التى نطق الوحـ ـىُ بتحريمها من القرآن
والتى ليس للتأوّل فيهـا مذهبٌ غير طاعة الشيطان

. . . . . .

فاسقيانى بين الدنان إلى أن تريانى كبعض تلك الدنان
اسقيانى فى المهرجان ولو كا ن لخمس بقين من رمضان
اسقياني فقد رأيت بعينى فى قرار الجحيم أين مكانى

ومن خمرية أخرى له :

أمسلم أنت ؟ قلت : نعم ، ظاهرى وباطنى فى الخمر نصطورى

. . . . . .

واستحضر العود ووجـــه به حتى نصـــلى بالطنابير
الركعة الأولى سريجيـــة وركعة التسليم ماخورى

ومن أخرى :

افضض الدن واسقنى يا نديمى اسقنى من رحيقه المختوم
اسقنى الخمرة التى نزلت فيـ ـها على القوم آية التحريم
اســـقنى فإننى أنا والقسـ ـسُ جميعاً نبولها فى الجحيم[1]

أما تديُّن العامة وورعهم فلا نعرف عنه للأسف إلا القليل ؛ كان لهم عقائد بسيطة ثابتة ، وكان عند بعضهم استعداد شديد لاتباع كل خارج على الدين والتنازع فى ذلك ؛ ففى عام ٢٨٩ هـ — ٩٠١ م قُتل ببغداد أحدُ القرامطة ، وهو

(١) البيان ج ٢ ص ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٦٣ .

المعروف بابن أبي القوس ، وعلق جسده على خشبة . يقول المسعودى : « وقد كان لأهل بغداد فى قتل ابن أبي القوس هذا أراجيف كثيرة ، وذلك أنه لما قُدِّم لتضربَ عنقه أشاعت العامة أنه قال لمن حضر قتله من العوام : هذه عمامتى تكون قِبَلك ، فإنى أرجع بعد أربعين يوما ، فكان يجتمع فى كل يوم خلائق من العوام تحت خشبته ، ويحصون الأيام ، ويقتتلون ، ويتناظرون فى الطرق فى ذلك ، فلما تمت الأربعون يوما ، وقد كان كَثُر لَغَطهم ؛ واجتمعوا ، فكان بعضهم يقول : هذا جسده ، ويقول آخر : قد مرّ ، وإنما السلطان قتل رجلا آخر وصلبه موضعه كى لا تفتتن الناس ، وكثر تنازع الناس حتى نودى بتفريقهم ، فترك التنازع والخوض فيه[1] » .

على أننا نجد أبا محمد الفرغانى (المتوفى عام ٣٦٢ هـ — ٩٧٢ م) ، وكان مقرّباً عند أمير مصر ، يعتبر هذه الحكاية التالية أهلا لأن يذكرها فى تاريخه ؛ فهو يقول نقلا عن أبى سهل الصدفى المتوفى عام ٣٣١ هـ — ٩٤٢ م ، — وهو الزاهد الورع الذى كان الأخشيد محمد بن طغج يجلّه ويتبرك بدعائه من غير أن يشاهده ؛ بل بالمراسلة — : « حدثنى أبو سهل بن يونس فى مسجده سنة ٣٣٠ هـ قال : قَدِم علينا شيخ كبير راهب ، كان بميافارقين ، فحدثنا أنه كان مترهّباً فى شبابه فى صومعة بميافارقين ، وأنه أشرف فى يوم كثير الضباب ، فنظر إلى طائر قد سقط بحيث يراه ، وفى فمه قطعةُ لحم ، فتركها ، ثم طار فأتى بأخرى ثم أخرى ، إلى أن أتى بعدة قطع ، ثم إن قطع اللحم اجتمعت حتى صارت شخص رجل ، ثم أقبل الطائر عليه ينقره ويقطعه ويأكله ، وهو يستغيث ، قال الراهب : فلما نظرت إليه صحت به وقلت له : ما قصتُك يا إنسان ؟ وما الذى أرى بك ؟ قال : أنا عبد الرحمن بن ملجم قاتل على بن أبى طالب صلوات الله عليه ، قد وكّل الله بى

(١) مروج الذهب ج ٨ ص ٢٠٤ .

هذا الطائر ، يفعل بي ما ترى ، وينقلني من موضع إلى موضع ، قال الفرغانى : قال أبو سهل : قال لنا الراهب : فلما نظرت معه ما رأيت انحدرت من الصومعة فأسلمت »[1] .

وقد صرّح أحمد بن محمد الإفريقي الشاعر المعروف بالمتيّم ، وكان فى بخارى فى أواخر القرن الرابع الهجرى بأن الدين إنما هو شأن الطبقة الأرستقراطية ، وهم اليوم سادة المسلمين فى كل بلاد الشرق ، وجاهر بأن الفقراء ليس عليهم أن يصلوا حتى يغتنوا ، وأن الذى يجب عليهم أن يحافظوا على الصلاة هم الأغنياء والأمراء وأصحاب الضياع والأموال ، فقال :

تلوم على ترك الصلاة حليلتى فقلتُ: أعزبى عن ناظرى ؛ أنت طالق
فوالله لا صليتُ لله مُفْلساً يصلى له الشيخُ الجليل وفائق
وتاش وبكتاش وكنباش بعده ونصر بن ملك والشيوخ البطارق
وصاحب جيش المشرقين الذى له سراديبُ مالٍ حشوُها متضايق
ولا عجب إن كان نوح مصلياً لأن له قصراً تَدينُ المشارق
لماذا أصلى ؟ أين باعى ومنزلى ؟ وأين خيولى والحلى والمناطق ؟
وأين عبيدى كالبدور وجوههم ؟ وأين جوارىَّ الحسان العواتق ؟
أصلى ولا فتر من الأرض يحتوى عليه يمينى إننى لمنافق
نعم صلاتى للذين ذكرتهم فمن عاب فعلى فهو أحمق مائق
بلى إنْ علىّ اللهُ وسّع لم أزَلْ أصلى له ما لاح فى الجو بارق
فإن صلاة السَّيِّئِ الحال كلها مخارق ليست تحتهن حقائق[2]

ولما خان المسلمين الحظ فى حروبهم مع الروم فى الغرب ابتلوا فى دينهم

(١) كتاب العيون مخطوط برلين ص ١٢٠٨ — ١٢٠٩ .
(٢) الإرشاد لياقوت ج ٢ ص ٨١ ، ويتيمة الدهر ج ٢ ص ٤١ . (المترجم) .

وامتُحنوا فى إيمانهم بمطالباتٍ لم يُسمع بها من قبل . فلما أخذ الدمُستُق ملطية عام ٣٢٢ هـ — ٩٣٤ م بعد أن حاصرها مدة طويلة حتى هلك أكثر أهلها بالجوع ضرب خيمتين على إحداهما صليب ، وقال : من أراد النصرانية انحاز إلى خيمة الصليب ليُردّ عليه أهلُه وماله ، ومن أراد الإسلام انحاز إلى الخيمة الأخرى ، وله الأمان على نفسه ويُبلَّغُ مأمنه ، فانحاز أكثر المسلمين إلى الخيمة التى عليها الصليب طمعاً فى أهليهم وأموالهم ؛ وسيّر مع الباقين بطريقاً يبلّغهم مأمَنهم[1] .

ولما عادت بلاد اللاذقية إلى قبضة الروم هاجر منها كثير من المسلمين ، ولكن بقى فى الإقليم كثير من أهله ، ودفعوا الجزية بدورهم للروم . ويقول ابن حوقل : « وأظنهم صائرين إلى النصرانية أنَفَةً من ذلة الجزية ، ورغبةً مع حذف المؤنة فى العز والراحة »[2] . ولكن انتصارات الروم لم يكن لها إلا صدى ضعيف فى داخل المملكة الإسلامية ، وقد تقبّلها المسلمون بإيمان قوى ، وفسّروا أمر هذا البلاء بالتفسير المألوف ، وهو أنه دليل على صحة دين الإسلام ، وجزاء لأهله الذين أهملوا أوامره[3] .

---

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ٢٢١ . (٢) ابن حوقل ص ١٢٧ .

(٣) أرسل نقفور للمسلمين بعد أن فتح الثغور قصيدة سبّاهم ، فيها تقريع وتعيير وضروب من الوعيد ، وقد ردوا عليها ردوداً شيقة بينوا فيها الحقيقة والفرق بين المسلمين وغيرهم فى الانتصار والمعاملة . ولمحمد بن على بن إسماعيل القفال المتوفى عام ٣٣٦ هـ قصيدة فى ذلك منها :

ونرجو وشيكاً أن يسهل ربنا　　دخول خوالى الريش تحت القوادم
وقلتم ملكناكم بجور قضاتكم　　وبجهــــور أحكامهم بالدراهم
وفى ذاك إقرار بصحــة ديننا　　وأنا ظلمنــا فابتلينا بظالم

وثم قصيدة لابن حزم ؛ وفى هذه القصائد إقرار بأن الهزيمة ناشئة عن إهمال المسلمين لدينهم ، وعدم الاتحاد ، وكثرة الشقاق ، وضعف الخلفاء ، وانشغالهم بفتن الترك والديلم . انظر طبقات السبكى ج ٢ ص ١٧٩ — ١٨٩　(المترجم)

تعليـــق

علق مترجمُ هذا الكتاب إلى الإنجليزية المرحوم الأستاذ خدابخش الهندى على الفصل المتقدم بأن ترجم ما كتبه الأستاذ جولدزيهر فى كتابه المسمى دراسات إسلامية Goldziher, Mohammedanische Studien عن القُصّاص فى الجزء الثانى من ص ١٦١ — ١٧٠ . وهاك ما كتبه جولدزيهر :

القاصّ أو القَصّاص (والجمع قُصّاص) هو الرجل الذى كان يجمع الناس حوله فى الطرق أو فى المساجد — من غير أن تكون له صفة رسمية — فيعظهم حيناً بذكر الأحاديث والأخبار المأثورة ، ويسليهم بالقصص والحكايات حيناً آخر . وإن الصبغة الدينية لحديثهم هى التى كانت تميزهم عن القصاص غير الدينيين الذين كانوا يجمعون الناس إليهم فى الطرق ليسلوهم بالنوادر والمضاحك[١] ويقومون مقام الصحف الهزلية فى أيامنا هذه . ومن هؤلاء المضحكين من كان مقرّبا من الخلفاء .

ولم يكن يقترن باسم القاص فى عهد الإسلام الأول ما التصق به فى أثناء تطور القصص من ابتكار والمذمة . وقد سمى ما جاء به النبى عليه السلام قصصاً فقال تعالى : «فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ» (سورة الأعراف ، آية ١٧٦) وقال جل شأنه : «نَحْنُ نَقُصُّ عليك أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هٰذَا الْقُرْآنَ وإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ» (سورة يوسف ، آية ٣) . ويروى عن النبى عليه السلام أنه امتدح الخطباء الصالحين الذين يسمّون القصاص[٢] ، وفى الأخبار مايدل على أن القصص قديم فى الإسلام ، فيحكى عن عمر بن الخطاب

(١) مروج الذهب للمسعودى ج ٨ ص ١٦١ وما بعدها ، والكامل للمبرد ص ٣٥٦ ونجد من هؤلاء من هم أهل الذكاء والنوادر ، الأغانى ج ٢١ ص ٩٠ سطر ٧ .

(٢) كتاب القصاص والمذكرين لابن الجوزى مخطوط ليدن رقم ٩٩٨ ص ١ / .

أنه أجاز لتميم الداريّ ، أو لعُبَيد بن عمير فى رواية أخرى ، أن « يقصّ الناس[1] » وفى عهد معاوية ندب رجال من الصالحين لوعظ الناس ، وتقوية د. برواية القصص الدينية ؛ ورضى عن ذلك علماء الدين . ونجد القُصّاص أحد فى صفوف القاتلين يحرضونهم على القتال ويحمّسونهم كما كان الحال فى الجاهلية[2] وأقدم ما وصلنا من أخبار هذا الفريق أمر القُصاص الثلاثة الذين ساروا حوالى عام ٧٠ هـ ، فى عهد مروان بن الحكم ، تحت قيادة سليمان بن صُرد للانتقام لمقتل الحسين رضى الله عنه ، فكان أحدهم مع الميمنة ، والثانى مع الميسرة ؛ وكان الثالث يدور الليل كلّه فى الجند يحمسهم بكلمات من نار ، ويقول : أبشروا عبادَ الله بكرامة الله ورضوانه ، حُقّ والله — لمن ليس بينه وبين لقاء الأحبّة ودخول الجنة والراحة من أبرام الدنيا وأذاها إلا فراقُ هذه النفس الأمارة بالسوء — أن يكون بفراقها سخيًّا وبلقاء ربه مسروراً[3] . ويحكى لنا مثل هذا النشاط فى القرن الثالث الهجرى ، فيُذكر أن رجلا يسمى أبا العباس أحمد بن أبى أحمد الطبرى المعروف بالقاص سمى بذلك ؛ لأنه كان مع جيوش المسلمين فى حروبهم للديلم والروم يحرضهم ويقص لهم[4] .

وقد اشتهر بعضُ القصاص أيضاً بتفسير القرآن ، ومن هؤلاء فى القرن الثالث الهجرى ؛ موسى الأسوارى وعمرو بن فائد الأسوارى ، وكان أولهما من أعاجيب الدنيا ، فكانت فصاحته بالفارسية فى وزن فصاحته بالعربية ، وكان يجلس فى مجلسه المشهور ، ويقعد العرب عن يمينه ، والفرس عن يساره ، ثم يقرأ

(١) نفس المصدر ص ١٦ — ١٧ .

(٢) انظر Goldziher, Muh. St. vol 1, 44 ؛ وقد ذكر أبو حنيفة الدينورى (ص ١٢٨) أن سعداً قبل لقاء القادسية جعل عمرو بن معديكرب وقيس بن هبيرة وشرحبيل بن السمط يثيرون عزائم العرب بقصائدهم ويحرضونهم على القتال .

(٣) تاريخ الطبرى ج ٢ ص ٥٥٩ .

(٤) العقد المذهب لابن الملقن مخطوط ليدن رقم ٥٣٢ ص ١١ أ ؛ وكتاب التهذ ص ٧٤١ .

الآية من كتاب الله ، ويفسرها بالعربية للعرب ، ثم يحول وجهه إلى الفرس ، فيفسرها لهم بالفارسية ، فلا يُدرى بأى اللسانين هو أبين ، يقول الجاحظ : « واللغتان إذا التقتا فى اللسان الواحد أدخلت كل واحدة منهما الضيم على صاحبتها إلا ما ذكروا من لسان موسى بن سيّار الأسوارى[1] » . أما عمرو بن قائد الأسوارى فكان يفصل فى التفسير حتى إنه قص ستا وثلاثين سنة ، فابتدأ بتفسير سورة البقرة ، فما ختم القرآن حتى مات ، لأنه كان حافظاً للسير ولوجوه التأويلات ؛ فربما كان يفسر الآية الواحدة فى عدة أسابيع[2] .

حتى الآن نجد القُصّاص يخدمون غاية دينية هامة كوُعّاظ أو قُصّاص أخبار دينية ، ولم يتعرّض لهم أحد فى ذلك ، ورضى العلماء بهذه الطائفة من الوعاظ المتطوّعين الذين يثقّفون العامة ، لأنهم سواء فى خطبهم بالمساجد أو بجمعهم الناس فى الطرقات كانوا ينزلون إلى مستوى العامة ويبثون فيهم روح الزهد ، وهو ما لا يشتغل به علماء الشريعة المهتمون بالأحكام . والحق أن الزهد أصاب من القصاص دُعاةً له وناشرين ، وقد ذكر لنا الجاحظ قطعاً من قصص هؤلاء القوم[3] . ولم يُذكر لنا أن أحداً منع القصاص أو تعرض لهم بمضايقة فى أدائهم لهذه المهمة التى هى عنصر مكمل فى الحياة الدينية الإسلامية .

ولم يكن المنع موجّهاً إلا للقصاص الذين أساءوا استعمال القصص ، وخرجوا به عن غايته ؛ وليست الإجراءات التى ذكرها المؤرخون فيما يتعلق بالقصاص إلا موجهة إلى المحتالين على الشعب منهم ، وهم الذين لم يكن قصدهم الدين ، بل تسلية العامة باختراع الأحاديث ونشرها بينهم ، أو الذين كانوا يشوّهون القصص الدينية ويتخذونها أساطير ، وقد انصب غضب العلماء المحافظين على أصحاب هذا الصنيع وحدهم .

(١) البيان والتبيين للجاحظ طبعة القاهرة ١٣٣٢ هـ ج ١ ص ١٩٩ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) انظر كلام عبد العزيز الفزالى القاص فى البيان والتبيين ؛ ويشير المؤلف إلى ص ١٢٧ ب من مخطوط لهذا الكتاب .

وعندنا بعض الأخبار الخاصة بالعصر الأول للقصاص ، وأقدم خبر هو خبر نوف بن فضالة ، وكان يقص بالكوفة ، وقد ذكر البخاري[١] أن سعيد بن جُبَير سأل ابن عباس فيما زعمه نوف هذا من أن موسى صاحبَ الخضر ليس هو موسى صاحب بني إسرائيل ، فقال ابن عباس : كذب عدو الله[٢] . وبمجرد تفطّن الناس للخطر الذى استهدف له الحديث بسبب القصاص حاول العلماء أن يطعنوا فى أسانيدهم وينسبوهم إلى الخوارج[٣] . ولم يشتد اضطهادهم إلا بعد أن كثروا بالعراق ؛ حتى حكى ابن عون المتوفى عام ١٥١ هـ أنه فى مساجد البصرة كان لعلماء الفقه حلقة واحدة ، على حين كان للقُصاص حلقاتٌ لا تحصى حتى كانت المساجد مملوءة بهم[٤] . ومما يدل على خفة العامة فى تصديق القصاص وعبث هؤلاء بهم ما حُكى من أن كلثوم بن عمرو العتّابى الشاعر ، الذى عاش فى أيام الرشيد والمأمون ، كان يأكل خبزاً على الطريق ببغداد فرآه عثمان الوراق ، فقال له : ويحك ؛ أما تستحى ! فقال له كلثوم : أرأيتَ لو كنا فى دار فيها بقر كنتَ تستحى وتحتشم أن تأكل ، وهى تراك ؟ فقال : لا ؛ قال فاصبر حتى أعلمك أنهم بقر ؛ فقام فوعظ وقصّ حتى كثر الزحام عليه ، ثم قال للناس : روى لنا غيرُ واحد أن من بلغ لسانه أرنبةَ أنفه لم يدخل النار ، فما كان ذلك إشارة منه للناس ، فلم يبق أحدٌ منهم إلا وأخرج لسانه يومىءُ به نحو أرنبة أنفه ليرى إن كان يبلغها أم لا[٥] . وليس من العسير علينا أن ندرك أن حكايات القصاص السهلة المسلية كانت أشد استهواء للعامة من كلام العلماء العويص ، خصوصاً

---

(١) البخاري ؛ كتاب التفسير ؛ سورة الكهف .

(٢) ويُذكر أن الحسن رضى الله عنه مرّ يوما وقاص يقصّ على باب مسجد رسول الله ؛ فقال له الحسن : ما أنت ؟ قال : أنا قاص يا ابن رسول الله ؛ قال : كذبت ، محمد القاص ، قال الله عز وجل : فاقصص القصص ؛ قال : فأنا مذكر ؛ قال كذبت ، محمد المذكر ، قال الله عز وجل : فذكر إنما أنت مذكر ؛ قال : فما أنا ؟ قال له الحسن : المتكلف من الرجال . (تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ٢٧٠).

(٣) كتاب القصاص لابن الجوزى ص ١٨ .

(٤) نفس المصدر ص ١١ .

(٥) كتاب الأغانى ج ١٢ ص ٥ .

وأن القصاص كانوا لا يتحرجون من اتخاذ أية وسيلة لجذب العامة إليهم ، وقد ذكر الجاحظ بعض ما حكى من عبث القاص المسمى أبا كعب[١] وسرعان ما نرى بعد ذلك إجراءات تُتّخذ ضد القصاص ، ففي عام ٢٧٩ هـ أمر الخليفة بالنداء في مدينة السلام ألا يقعد على الطريق ولا في المسجد قاصٌ ولا منجم ولا عرّاف ، وجُدّد هذا الأمر في عام ٢٨٤ هـ[٢] . وإن الجمع بين القاصّ والمنجم والعراف في أمر واحد ليدل على رأى الدوائر الرسمية في مسألة القصص . وبعد ذلك بقليل يذكر المسعودى وصفاً شيّقاً للعامة في ذلك العصر فيقول : « وتفقّدْ العامةَ في احتشادها وجموعها ، فلا تراهم الدهرَ إلا مُرْقِلين إلى قائد دبٍّ ، وضارب بدفٍّ على سياسة قرد ، أو متشوّقين إلى اللهو واللعب ، أو مختلفين إلى متعبّد متنمّس مخرق ، أو مستمعين إلى قاص كذاب ، أو مجتمعين حول مضروب ، أو وقوفاً عند مصلوب ، يُنعَق بهم فيتبعون ، ويُصاح بهم فلا يرتدعون ، لا ينكرون منكراً ، ولا يعرفون معروفاً[٣] ... ومما هو أكثر بياناً للأسباب التي حدت بالحكومة إلى الالتجاء إلى هذه الإجراءات مما حكاه المسعودى وثيقة ترجع إلى القرن الرابع الهجرى ، وهى من قلم أبى دُلَف الخزرجى شاعر الملح والطرف ، فقد ألف قصيدةً مشهورة تسمى القصيدة الساسانية ذكر فيها المُكدّين ، ونبّه على فنون حرفهم ، وأنواع رسومهم ، وهى وشرحها ذخيرة كبيرة تُستقى منها معلومات كثيرة متنوعة عن أحوال ذلك العصر الاجتماعية[٤] . وقد عرفنا بنى ساسان من المقامة الساسانية للحريرى وفيها يوصى أبو زيد السروجى ابنه

(١) يشير جولدزيهر الى ص ١٢١ ب من نسخة خطية لكتاب الحيوان .

(٢) الطبرى ج ٣ ص ٢١٣١ ، ٢١٦٥ . وتاريخ أبى المحاسن ج ٢ ص ٦٧ حيث ذكرت كلة قاضى بدل كلة قاص خطأ . وفى هذا الأمر حلّف المعتضد باعة الكتب ألا يبيعوا كتب الفلاسفة والجدل .

(٣) مروج الذهب ج ٥ ص ٨٦ .

(٤) كذلك أثرتْ بها المعاجم ، وألف الأحنف العكبرى المسمى شاعر المُكَدّين قصيدة أخرى .

بلزوم حرفة بنى ساسان[١] . وقد بين أبو دلف فى قصيدته أصناف المكدين والمخرقين والمحتالين من أسوإ طراز ، ونجد القاص فيهم إلى جانب المحتالين ؛ يقول أبو دلف :

ومن قصّ لإسرائيـــل أو شبراً على شبر

(هو الذى يروى الحديث عن الأنبياء والحكايات القصار ويقال لها الشّبريّات) .

ومن يروى الأسانيد وحشو كل قطر

(هؤلاء قوم يروون الأحاديث على قوارع الطرق) .

ومن ضرب فى حـــبّ علىّ وأبى بكر

وهم قوم يحضرون الأسواق ، فيقف واحد جانباً ، ويروى فضائل علىّ رضى الله عنه ، ويقف الآخر جانباً ويروى فضائل أبى بكر رضى الله عنه ؛ فلا يفوتهما درهم الناصبى والشيعى ؛ ثم يتقاسمان الدراهم[٢] .

وقد استمرت هذه الحال ، وفى القرن السادس الهجرى نجد ابن الأثير يجمع بين القصاص والمشعبذين فى عبارة واحدة[٣]. وليس الجمع بينهما غريباً إذا عرفنا ما ذكره ابن الجوزى (ص ١٠١ — ١٠٦) من حيلهم حوالى ذلك العصر ، فمنهم من كانوا يدهنون وجوههم بما يجعلها صفراء تشبّهاً بالنساك الصائمين ؛ وكان آخرون يتخذون ما يسيل دموعهم متى أرادوا ؛ ومنهم من كان يوقع نفسه من على المنابر أو يضربها برجله إيهاماً للناس بشـدة انفعاله ، وكان فريق يخدعون النساء باتخاذ اللباس الحسن . وعلى حين كان القصاص القدماء موضع تقدير العلماء وإعجابهم ، لـما كان فى تعاليمهم من روح دينية وخلقية ، نجد القصاص المتأخرين قد شوّهوا الدين طلباً لتسليـة العامة ، وكانوا يوهمون الناس بعلمهم من طريق

---

(١) فيما يتعلق بأصل هـذه التسمية ارجع إلى ما كتبه دى ساسى فى الجزء الأول ص ٢٣ وما بعدها من نشرته لمقامات الحريرى .

(٢) يتيمة الدهر للثعالبى ج ٣ ص ١٧٩ ، ١٨٢ — ١٨٣ .

(٣) المثل السائر ص ٣٥ .

التكلف أحياناً فى بيان أصول الكلمات[1] وكانت الإسرائيليات وما يتصل بها مادة لقصصهم ، وقد عملوا على نشرها ، وكانوا لا يترددون عن الإجابة عن كل سؤال يوجه إليهم ، لأن اعترافهم بالجهل كان من شأنه أن يزعزع ثقة العامة بهم ؛ فزعم بعضهم أنه يعرف اسم العجل الذى عبده القوم[2] ، وذكر آخر اسم الذئب الذى زعم أنه أكل سيدنا يوسف ، فلما قيل له إن يوسف لم يأكله الذئب ، قال هو اسم هذا الذئب الذى لم يأكله[3] . وكانوا يجبهون العلماء الذين يكشفون عن جهلهم وخداعهم بكل جراءة ، وكان العلماء أعدى خصومهم ، وكان العامة يقدرون القصاص أكثر من تقدير العلماء . ويحكى عن أم أبى حنيفة أنها احتاجت مرة إلى معرفة مسألة من مسائل الشريعة ، فسألت ابنها ، فأجابها ، ولكنها لم تقتنع فذهبت معه إلى زرعة القاص ، فلما أقر رأى أبى حنيفة اقتنعت الأم[4] .

ولكن القصاص لم يكونوا جميعاً مع العلماء فى أدب زرعة وتواضعه ، فكانوا فى الغالب يعارضون العلماء بثبات وجراءة غريبين ، وكان العامة دائماً إلى جانبهم ، فيحكى عن الشعبى المحدث المتوفى عام ١٠٣ هـ أنه نزل تدمُر ، فوافاها يوم جمعة ، ودخل يصلى فى المسجد ؛ فإذا إلى جانبه شيخ عظيم اللحية ، قد أطاف به قوم ، فحدثهم وقال : حدثنى فلان عن فلان يبلغ به النبى صلى الله عليه وسلم أن الله تعالى خلق صورين ، له فى كل صور نفختان ، نفخة الصعق ونفخة القيامة ، قال الشعبى فلم أضبط نفسى أن خففت صلاتى ، ثم انصرفت فقلت يا شيخ ! اتق الله ولا تحدث بالخطأ ، إن الله لم يخلق إلا صوراً واحداً ، وإنما هى نفختان : نفخة الصعق ونفخة القيامة ، فقال لى : يا فاجر ! إنما حدثنى فلان عن فلان وترد علىّ ، ثم رفع نعله فضربنى بها ، وتتابع القوم علىّ ضرباً معه ، فوالله ما أقلعوا

---

(١) سئل بعض القصاص لماذا سمى الصنوبر صنوبرا فقال لأنه صنى وبر (معجم البلدان لياقوت ج ١ ص ٢٩٣ .

(٢) المبرد ص ٣٥٦ ؛ والعقد ج ٢ ص ١٥١ ، وقارن مروج الذهب ج ٤ ص ٢٣ ، ٢٦ .

(٣) كتاب القصاص لابن الجوزى ص ١٢٩ . (٤) نفس المصدر ص ١٢٤ .

عن حتى حلفت لهم أن الله خلق ثلاثين صوراً فى كل صور نفخة[١] . على أن هذه القصة إن لم تكن صحيحة من الناحية التاريخية فهى تدل على الأقل على إنكار العلماء على القصاص فيما يروونه من الأباطيل وقيام العامة على العلماء ، ويحكى عن أبى جرير الطبرى أنه سمع أحد القصاص يفسر قوله تعالى : « عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً » (سورة الإسراء ، آية ٧٩) بأن الله يجعل لمحمد عليه السلام مكاناً على العرش إلى جانبه ، فأنكر ذلك بأن كتب على باب داره ما نزه به الله عن ذلك ، وفهم العامة قصده فرموا باب داره بالحجارة حتى سدوه[٢].

يستطيع القارئ أن يتصور مقدار الخطر الذى كان يتهدد الحديث وصحة روايته من هذه الطائفة ، ومقدار نصيبهم فى اختراع الأحاديث الموضوعة ونشرها . ويظهر أنهم كانوا فى العصور الأولى منتشرين فى العراق انتشاراً عظيما . وبعد ذلك فى آسيا الوسطى . أما فى الحجاز فكانوا نادرين . ويحكى عن مالك بن أنس أنه منعهم من دخول مسجد الرسول بالمدينة . وكانوا أيضاً قليلين فى المغرب حيث كان يغلب على الناس العناية بالحديث والأمانة فى روايته ، حتى يقول المقدسى : إن أهل المغرب لا يعرفون إلا كتاب الله وموطأ مالك[٣] .

ويجب أن نفرق بين اختراع القصاص للأحاديث وبين اختراع غيرهم لها ، ذلك أنه لم تكن لهم صفة سياسية أو مذهبية أو حزبية ، وإنما كانوا يقصون للتسلية سامعيهم ، ورغبة منهم فى الكسب من العامة . ولما كان الكسب غرضهم فقد نشأ بينهم الحقد والبغضاء ، حتى صار من الأمثال الجارية أن القاص لا يحب القاص[٤] ، وفى الأثر أن عمران بن الحصين مرّ على قاص يقرأ ، ثم سأل ، فاسترجع ، ثم قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من قرأ القرآن

---

(١) نفس المصدر ص ١٠٧ ، وتحذير الخواص من أكاذيب القصاص للسيوطى مخطوط ليدن رقم ٤٧٤ ص ٤٦ أ — ٤٩ ب ، وانظر الفصل التاسع من هذا المخطوط أيضا .

(٢) نفس المصدر . (٣) المقدسى ص ٢٣٦ .

(٤) يتيمة الدهر ج ٣ ص ٢ .

فليسأل الله به ، فإنه سيجيء أقوام يقرءون القرآن يسألون به الناس[١] . والذى يقوم فى مجلس القصص ليجمع الصدقة يسمى المكوِّز (فعله كوَّز) ، فكان القاص يأمر الحاضرين بإعطائه ، وإذا تفرق الجمع تقاسما ما اجتمع من المال[٢] . وكان العامة يعتقدون الخير فى القصاص حتى كانوا يلجأون إليهم فى الدعاء لهم ، ومن المُلح أن رجلا أعطى قاصا يسمى أبا سليمان فَلْساً ، وقال : ادع الله لابنى بردّه على ، فقال وأين ابنك ؟ فقال : بالصين ، قال : أبردّه الله من الصين بفلس ؟ هذا مما لا يكون ، إنما لو كان بجنّابة أو بسيراف كان نعم[٣] .

بل نحن نجد هؤلاء القصاص غير المسؤولين فى المدن الإسلامية[٤] فى هذه الأيام . ويقول شاك Schaek فى روزنامجته عام ١٨٧٠ م عند ما كان بدمشق : « وكان أكبر منظر شاقنى منظر له دلالته شاهدته فى الجامع الأموى ، ذلك أن شيخاً وقف إلى جانب أسطوانة فى المسجد ، وحوله جمع عظيم ، فألقى درساً كان يشير فيه بإشارات مؤثرة ، وقد أخبرنى دليلى أنه ليس من العلماء الرسميين ، بل هو رجل يعظ طلباً للمال » ، هذا المنظر ذكر شاك بأبى زيد السروجى بطل مقامات الحريرى . والحق أن المقامة الحادية والأربعين تصف مثل هذا المنظر .

---

(١) صحيح الترمذى ج ٢ ص ١٥١ ؛ وكتاب القصاص لابن الجوزى ص ١٤٧ — ١٤٩ .

(٢) يتيمة الدهر ج ٣ ص ١٧٨ . (٣) معجم البلدان ج ٢ ص ١٢٣ .

(٤) فيما يتعلق ببخارى مثلا انظر كتاب بيترمان (Petermann) واسمه (Geog. Mitteilungen, 1889 s. 269) .

ويقول المرحوم خدابخش إن الهند بنوع خاص مملوءة بالقُصاص ، وإنهم أكبر عقبة فى سبيل التقدم ، ولهم تأثير قوى فى الجماهير ، أما بضاعتهم فقليل من القرآن والحديث قد حفظوه ، فهم يذكرونه فى مقامه وفى غير مقامه ، وهم يخترعون الأحاديث ويقلبون الحقائق ويشوهونها ، وسامعوهم يصغون إليهم أيما إصغاء ، وكلمتهم كالقانون . وقد رأيتهم يتأوهون ويتنهدون ويبكون فى مجالسهم . وطريقتهم هى طريقة قدماء القصاص . وكثيرا ما أدهشنى جهلهم وجراءتهم ، ولكن قومى يصغون إليهم دون تفكير مناقشة ويطيعونهم بلا تردد فى توجيههم لهم وفى تفسير أمور الدين والشرع . ولا يمكن أن يتحقق إصلاح ما دام العامة تحت تأثير هؤلاء القصاص غير المسئولين . والأمل الوحيد هو المعقود على انتشار التعليم ، والتعليم هو الذى يعيد للعقل مكانته . وإن خطباء المسلمين الظاهرين اليوم فى كل مدينة وقرية بالهند هم فيما يلوح خلفاءُ أولئك القصاص الذين ظهروا فى أواخر عهد الخلافة .